

الأصول التاريخية للتربية الإسلامية

مقدمة :

ليس من شك في أن المهمة الأساسية لفيلسوف التربية ، هي أن يحفر تحت لرض الواقع الثقافي بحثا عن الجذور التي أنبتته ، وليست مهمته أن يقل على نفسه بلب مكتبه ليصول ويجول بعقله متأملا تأملا قسفيا منقطع الصلة بالواقع ، ناسجا من هذا التلمل للمجرد قماشاً يتصور أنه سيتمطيع أن يلبسه الواقع (١) .

أما والأمر هكذا ، فلاشك أن الواقع الثقافي العربي يطوى في أحشائه عددا من السمات والاتجاهات الثقافية الخاصة تجعل من العرب عربا يتميزون عن غيرهم من الأمم والشعوب الأخرى . صحيح أن هذه السمات والاتجاهات قد تطورت ولبست أثوابا متعددة بتعدد العهود والأزمان ، إلا أنها احتفظت بأسس ثابتة ومذاق خاص وأصول تربط ماضينا بحاضرنا ، وتجعل منا أمة عربية واحدة ممتدة على امتداد التاريخ .

فما معنى هذا بالنسبة لفيلسوف التربية ؟ معناه أن يكشف جهده لتحليل الحياة الثقافية العربية المعاصرة ليرتد بها إلى جذورها ، لتكون هذه الجذور هي ما قد يسمى بظمفة للتربية العربية المعاصرة ، وهذا هو نفس ما فعله مفكروننا من قبل فعندما وجدوا أنفسهم في مواجهة مشكلة التباين الظاهر بين ما أتى به الوحي من حقائق ، وما كان الإنسان قد توصل إليه بجهده العقلي الخالص ، أعملوا عقولهم وكثفوا أنشطتهم محللين ، منقبين ، إلى أن وصلوا نتيجة هذه الجهود إلى ألا تعارض بين المصدرين ، لأن الهدف النهائي لها واحد . وظهر هذا واضحا فيما كتبه ابن رشد بعنوان " فصل المقال فيما بين الحكمة والثريعة من اتصال " .

أما المشكلة الأساسية التي يواجهها مربى اليوم ، فهي أنه يجد نفسه واقعا بين نارين لا يعلم كيف الخلاص منهما ؟ فمن أمامه نافذة تهب منها رياح الثقافة الغربية بألوانها المتعددة فى الأدب والفن والعلوم والسياسة والاقتصاد والفلسفة ، فيحس وكأنه متمول يمد يديه طالبا إحسانا (٢) ، فإذا ما تحركت بين جوانبه كرامته العربية ، وأبى أن يتزود بما ليس له فضل فى إيجاده ، وأدار وجهه إلى الوراء ماذا يده ليعب بها من معين آباته وأجداده قاتعا به لأنه

(١) زكى نجيب : تجديد الفكر العربى ، دار الشرق ، بيروت ، ١٩٧١ ، ص ٩٧ .

(٢) Holt, P.M.C. ed; Political and Social change in modern Egypt, Oxford University Press, London, 1968. p.270.

يكفيه السؤال ، سرعان ما يمسك القلق بتلابيبه ، فما هي مشكلات اليوم تتلاحق عليه وتحيط به من أمام ومن خلف ومن شمال وجنوب تعترضه اعتصارا ، فهل يجد في معين آياته وأجداده دائما ما يستطيع أن يواجه به كل هذا ؟ إن الأمانة العلمية تفرض علينا أن تكون الإجابة هي بالنفي !

وهكذا يجد المرابي منا نفسه في غربة مدهشة ، فهو إن قذف بنفسه في تيار الثقافة الغربية شعر بضالة الشأن وصغر النفس ، وقلة جدوى الوجود ، وهو إن تبع تراث أجداده ، أصبح كمن يلوذ بشرنقة تعزله عن تيار الحياة المعاصرة المتصل الجريان (١) .

والمستقرئ لحياتنا الثقافية خلال القرنين التاسع عشر والعشرين ، يلمس بوضوح تصدعا بهذه المشكلة التي نطلق عليها اليوم اسم " الأصالة والمعاصرة " ، وانقسم متقفونا إلى ثلاث فرق : منهم من فضل التمسك بما قاله الأسلاف وحده صامتا أذنيه عن كل صوت حديث ، إلى الدرجة التي ظللنا فيها فترة غير قصيرة لا نطلق لفظة " العالم " إلا لمن حصل قدرا كافيا من تراث الأسلاف ، وفريق اكتفى على العكس من ذلك بما يرد إلينا من علم حديث ، ناظرا باحتقار وازدراء إلى كل ما يصدر عن الأسلاف (٢) .

وفى اعتقادنا أن الطريقتين هما أسهل الطرق ، فما الصعوبة في أن نجعل من أنفسنا نسخة مكررة مما فات ؟ وما الصعوبة في أن نردد ما يقوله الغربيون مقلدين محاكين ؟ لكننا نسأل : هل يمكن أن يصنع هؤلاء وهؤلاء ثقافة إسلامية معاصرة ؟ وبالتالي هل يمكن أن ننشئ تربية إسلامية معاصرة من هذه الثقافة ؟ كلا .. صحيح أن الفريق الأول إسلامي ، لكنه ليس عصريا . وصحيح أن الفريق الثاني عصري ، ولكنه ليس إسلاميا !

إن العمل الذي يتطلب حقيقة جهدا شاقا ، هو كيفية الموازنة بين الاثنين ، بمعنى كيف ننشئ ثقافة تحتفظ بالقيم الأساسية في الثقافة الإسلامية بحيث لا تعوق حركة التطور الحضارى واتجاه التعصير ، وفى نفس الوقت تفتح على ثقافة الغرب تمتص منه قوتها وما يدفعها إلى أمام ؟

إن هذا يتطلب منا دراسة تحليلية ناقدة لتراثنا الثقافى والتربوى لنستخرج منه أهم ما فيه ، ومعيار الأهمية ، هو مقدار ما يعيننا هذا الذى نختاره على مواجهة حياة اليوم وآمال

(١) تجديد الفكر العربى ، ص ٩ .

(٢) Polical and Social change, p. 271.

الغد ، كما يتطلب أيضا تعرفا حقيقيا على إنتاج الغرب العلمى . ومن هنا تأتى ضرورة هذا البحث وأهميته . ذلك أنه خطوة على الدرب . محاولة يقوم بها رحالة عبر التاريخ الإسلامى لا ليستمتع بما كان فى سالف الأزمان ، ولكن ليلتقط كل حجر يعثر عليه مفيد فى عملية بناء التربية المعاصرة . نقول هذا ونؤكد عليه لأنه ما من مرة ، يبدأ فيها باحث اليوم يتلفظ بلسانه أو يخط بقلمه تاريخا ، حتى تسرع أصابع الاتهام بأن هذا ' اجترار ' و ' بكاء على الأطلال ' وعمل فكرى باطنى لن يحرك ولن يغير من أمر واقعنا شيئا ، فضلا عن أن يؤثر على مستقبلنا . فليس كل من يبحث فى موضوع من موضوعات اليوم بعصرى ، وليس كل من يبحث فى الأمس بمتحفى ، فربما أثار الباحث إلى الحاضر وعالجه ورسم خطوط المستقبل وهو يرص ألقاظا من قديم ويمير وفق دروب سنوات مضت ! ولربما اتجهت أنظار باحث إلى وراء ، وخطط لما يسهم فى الرجوع إلى هذا ' وراء ' ، وهو يرص ألقاظا عصرية ، ويتصور أنه يسير وفق دروب اليوم والغد !! .

أولا : عهد الإبداع

الإسلام ، معين التربية الذى لا ينضب :

حمل إلينا تاريخ الفكر ، العديد من الفلمفات التى أفاضت فى الحديث عن التربية ، والكثير من النظريات التى أشادت بالإنسان ^(١) ، ' وعاء ' العملية التربوية ، ولكن من حق الدين علينا أن نعلم أنه ، فضلا عن الدور الضخم الذى قام به فى تربية الإنسان تربية فعلية ، لا مجرد نظريات تخط على الصفحات ولا مجرد كلمات ترص بين بطون الكتب ، أن نعلم أيضا أنه نبه إلى بعض الأمور الأساسية التى لا بد منها حتى تكون التربية ' إنسانية ' لا أية تربية . ولا تكون إنسانية حقا إلا بتحرير الإنسان نفسه ، وإلا فكيف يكون الفرق بين تربية الإنسان وتربية أى نوع آخر من الأنواع الحيوانية الأخرى ، اللهم إلا فى الكم ؟ إن هذا يتضح لنا بالذات فى تلك القصة التى يرويها القرآن الكريم عن آدم عندما وجه سبحانه وتعالى إليه الخطاب : يا آدم ، إن لك ألا تجوع فيها ولا تعرى وإنك لا تظلم فيها ولا تضحى ! وهكذا تلقى أبو البشر أول قاعدة لتحرير الإنسان من العوز ، فلا عرى ولا جوع ، ولكن لا

(١) Ewing A . C . : The Fundamental Questions of philosophy, Routledge Kegan Paul , London , 1988 , P .99.

على أن يأتي له ذلك وهو جالس مستريح ولكن بالعمل . و" بالمعرفة " فلا حياة بلا عمل ، ولا عمل بلا معرفة .

خطوة أخرى خطاها الدين في تربية الإنسان كانت أروع الخطوات ، وهي " التوحيد " . لقد مضى يحطم بالتوحيد كل حاجز بين الإنسان وبارئته ! نعم إن إعلان الإله الواحد ، كان الضربة القاصمة التي حطمت عن الإنسان أغلاله ، ومزقت قيوده ، وهوت بالمتألهين عن عروشهم الملحذة وقيل للإنسان يومئذ : قيل للرجل العادي : أنت وحدك ظل الله في الأرض . . أنت خليفته . . أنت نفخة من روحه . . أنت شهبه من نوره . انهض ، هذا الكون لك ، اسع فيه متأملا مفكرا ، دارسا ، متذوقا . متمرسا ، متعلما . . . ليس بينك وبين الله وسطاء . . استعن بالله ولا تعجز (١) !!

ومضى رسل الله عليهم السلام ، كل في إطار زمانه ، وكل بوسائله يمدون الإنسان بأطر وأساليب يصوغ بها نفسه ، يربى بها ذاته ، ليكون جديرا حقا بأن يكون خليفة الله على الأرض . وتجلجل كلمات عيسى في المساكين :

- " الحق أقول لكم : إن كان أحد لا يولد من فوق لا يقدر أن يرى ملكوت الله " !
فماذا كان يعنى بالولادة من فوق ؟ كان يعنى أن يريقوا في أنفسهم الخانعة كل مشاعر العزة والسمو والاعتداد حتى تترعرع من ذبول ، وتنتعش من خمول وتولد من علياء .
وتدوى كلمات محمد عليه السلام :

- إذا ذهب كسرى ، فلا كسروية بعده . . وإذا ذهب قيصر ، فلا قيصرية بعده ، ولقد أظلمكم من الله خير جديد (٢) . . . وترتفع الدعوة لنبي البشر . " كونوا ربانيين ، أى تربوا وفقا للقيم التي رسمها الله ، ودعا الرسول عليه السلام فقال " تخلقوا بأخلاق الله ... إن ربي على صراط مستقيم " .

وهكذا نستطيع القول بأن ظهور الإسلام كان بشير ثورة في التربية الإسلامية . لقد جاء لينتقل بالبشر خطوات فسيحات إلى حياة مشرقة بالفضائل والآداب . واعتبر المراحل والوسائل المؤدية إلى هذا الهدف ، صميم رسالته ، كما أنه عد الإخلال بهذه الوسائل خروجا عليه وابتعادا عنه (٣) . لقد سأل الرسول الكريم أصحابه يوما : " أتدرون من هو المفلس ؟

(١) خالد محمد خالد : الدين في خدمة الشعب ، الإتحاد المصري ، الطبعة الثانية ، بدون تاريخ .

(٢) المرجع السابق . ص ١١ .

(٣) محمد الغزالي ، خلق المعلم ، دار الكتب الحديثة ، القاهرة ، ١٩٧٤ ص ١٢ .

قالوا المفلس فينا من لا درهم ولا متاع . فقال المفلس من أمتى من يأتي يوم القيامة بصلاة وزكاة وصيام ويأتي وقد شتم هذا وكذب هذا ، وأكل مال هذا ، وضرب هذا ، فيعطى هذا من حسناته ، وهذا من حسناته ، فإن فنيت حسناته قبل أن يقضى ما عليه أخذ من خطاياهم فطرح عليه ، ثم طرح في النار ^(١) ، وذلك هو المفلس : إنه كتاجر يملك في محله بضائع بألف وعليه ديون قدرها ألفان ، كيف يعد هذا غنياً ؟ .

ومن هنا كان قولنا أن الإسلام معين لا ينضب ، تستطيع التربية أن تغترف منه إلى ما شاء الله . فإلى أى حد نستطيع أن نجد في الإسلام بالفعل قيما ومبادئ تعيننا على مواجهة حياة العصر ، وتمدنا بالوسائل المؤدية إلى معالجة المشاكل اليوم وآمال الغد ؟ هذا هو ما نستطيع أن نقدم له في الخطوط القليلة القادمة ، على سبيل المثال لا الحصر ومن الزاوية التربوية البحتة :

الإشادة بفضل العلم وتقدير العلماء :

دفع الإسلام العقول إلى مجال العلوم دفعا وفتح أمامها كتاب الكون على مصراعيه داعيا إياها إلى التدبر في ملكوت السموات والأرض وما خلق الله من شيء لم يترك أمامها بابا مغلقا ولا احتجز دونها سرا مصونا . وقد نبه الله تعالى عباده إلى أن المعارف الكونية رحبة الأبعاد ، واسعة الآفاق ، مترامية الأطراف : ﴿ وَلَوْ أَنَّمَا فِي الْأَرْضِ مِنْ شَجَرَةٍ أَقْلَامٌ وَالْبَحْرُ يَمُدُّهُ مِنْ بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَا نَفِدَتْ كَلِمَاتُ اللَّهِ ﴾ ^(٢) .

وقد أمر الله ورسوله صلى الله عليه وسلم بهذا الدعاء ﴿ وَكَلَّ رَبِّي عَلِمًا ﴾ ^(٣) . وكان من أدعية النبي الماثورة " اللهم إني أسألك علما نافعا وعملا مقبلا " ^(٤) . وأخذ على الكافرين أنهم يمارعون إلى التكذيب دون مدارس أو بحث أو تحييص ﴿ بَلْ كَذَّبُوا بِمَا لَمْ يُحِيطُوا بِعِلْمِهِ وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الظَّالِمِينَ ﴾ ^(٥) . ولم يترك القرآن مجالا من المجالات الكونية دون أن ينبهنا إليه . ونستطيع أن نضرب بعض الأمثلة لميادين المعرفة التي فتحتها أمامنا وحفزنا إلى ولوجها ، لأن الحصر يضيق عنه المجال ^(٦) .

^(١) رواية مسلم .

^(٢) سورة لقمان ، آية ٢٧ .

^(٣) سورة طه ، آية ١١٤ .

^(٤) رواه الطبراني والترمذي .

^(٥) سورة يونس ، آية ٣٩ .

^(٦) على عبد العظيم : فلسفة المعرفة في القرن الكريم ، مجمع البحوث الإسلامية ، ١٩٧٣ ، ص ٥٨ .

١- النظر إلى المخلوقات عامة نظرة فلسفية عميقة : ﴿ أو لم ينظروا في ملكوت السموات والأرض وما خلق الله من شيء ﴾ (١) . ووصف الله نوى الألباب بأنهم هم ﴿ الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾ (٢) .

٢- وصف الأجرام السماوية مما تناوله علم الفلك : ﴿ وَآيَةٌ لَهُمُ اللَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ النَّهَارَ فَإِذَا هُم مُّظْلَمُونَ وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَهَا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ . وَالْقَمَرَ قَدَرْنَا مَنَازِلَ حَتَّىٰ عَادَ كَالْعُرْجُونِ الْقَدِيمِ . لَا الشَّمْسُ يَنْبَغِي لَهَا أَنْ تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلَا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴾ (٣) .

٣- وصف الأرض وما فيها من جبال وأنهار وسهول ووديان مما تناولته علوم الجغرافيا وطبقات الأرض ﴿ أَلَمْ نَجْعَلِ الْأَرْضَ مِهَادًا ، وَالْجِبَالَ أَوْتَادًا ﴾ (٤) . ﴿ أَلَمْ نَجْعَلِ الْأَرْضَ كِفَاتًا ، أَحْيَاءَ وَأَمْوَاتًا ، وَجَعَلْنَا فِيهَا رِوَاسِيًا شَامِخَاتٍ وَأَسْقَيْنَاكُم مَّاءً فُرَاتًا ﴾ (٥) .

٤- وصف تكوين الإنسان العقلي والاجتماعي ، مما تناولته علوم الطب والنفس ﴿ فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ مِمَّ خُلِقَ ، خُلِقَ مِنْ مَّاءٍ دَافِقٍ ، يَخْرُجُ مِنْ بَيْنِ الصُّلْبِ وَالتَّرَائِبِ ﴾ (٦) . ﴿ أَلَمْ نَجْعَلْ لَهُ عَيْنَيْنِ ، وَلِسَانًا وَشَفَتَيْنِ ، وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ ﴾ (٧) .

٥- الصلوات البشرية مما تناولته علوم الاجتماع : ﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ، وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافَ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَانِكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِلْعَالَمِينَ ﴾ (٨) .

احترام عقل الإنسان :

إذا كان الإنسان هو موضوع التربية ، فإن قيمة المصدر التربوي يمكن أن تقاس بمدى احترامه لعقل الإنسان حيث أنه هو الأداة التي يفهم بها ويتأمل ويتفكر . ومن مزايا

(١) سورة الأعراف ، آية ١٨٥ .

(٢) سورة آل عمران ، آية ١٩١ .

(٣) سورة يس ، آية ٣٧-٤٠ .

(٤) سورة النبا ، الآيات ٦ ، ٧ .

(٥) سورة المرسلات ، الآيات ٢٥ ، ٢٧ .

(٦) سورة الطارق ، الآيات ٥ - ٧ .

(٧) سورة البلد ، الآيات ٨ - ١٠ .

(٨) سورة الروم ، الآيات ٢١ - ٢٣ .

القرآن الكثيرة - وهو مصدر الإسلام الأول^(١) مزية واضحة ، تلك المزية ، هي التتويه بالعقل والتعميل عليه في أمر العقيدة وأمر التبعة والتكليف . ولا تأتي الإشارة إليه عارضة ولا مقتضبة في سياق الآية ، بل تأتي في كل موضع من مواضعها مؤكدة جازمة باللفظ والدلالة وتكرر في كل معرض من معارض الأمر والنهي التي يحث فيها المؤمن على تحكيم عقله أو يلام فيها المفكر على إهمال عقله ويتولى الحجر عليه .

ولا يأتي تكرار الإشارة إلى العقل بمعنى واحد من معانيه التي يشرحها علماء النفس ، بل هي تشمل وظائف الإنسان العقلية على اختلاف أعمالها وخصائصها وتعتمد التفرقة بين هذه الوظائف والخصائص في مواطن الخطاب ومناسباته^(٢) .

وتطبيقاً لهذه الفلسفة في احترام العقل ، نهى الأئمة الأربعة عن الأخذ بقولهم من غير دليل وروى عن أبي حنيفة أنه قال : لا يحل لأحد أن يأخذ قولنا ما لم يعلم من أين قلناه . وروى عن أبي يوسف أنه قيل له : إنك تكثر الخلاف لأبي حنيفة ، فقال : إن أبا حنيفة قد أوتى ما لم نؤت ، فأدرك فهمه ما لم ندركه ، ونحن لم نؤت من الفهم إلا ما أوتينا ولا يسعنا أن نفتي بقول ما لم نفهم من أين قال^(٣) .

أهمية العمل ووجوبه :

ولمست كلمة العمل بالكلمة الغريبة على المفردات القرآنية ، فقد ذكرها القرآن بكثرة ، وقرنها بالصلاة والزكاة والإيمان والإنفاق لأن الإسلام دين حياة : وعمل ، وهو كذلك لتوافقه مع الطبيعة البشرية . بل لقد جعل الإسلام العمل دليلاً على صدق الإيمان ، ففي الحديث النبوي المشهور " ليس الإيمان بالتمنى ، ولكن ما وقر في القلب وصدقه العمل " . وقد نوه القرآن ببعض الصناعات الهامة على عهد نزوله بالنسبة للمجتمع الإسلامي تنويهاً يشير إلى عظيم أثرها وجليل فضلها .

- نوه بصناعة الحديد ، حيث يقول : ﴿ وَأَنْزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنْفَعَةٌ

لِلنَّاسِ ﴾^(٤) .

(١) سعيد إسماعيل علي : مصادر التربية الإسلامية ، في الكتاب المنوي في التربية وعلم النفس ، عالم الكتب ، ١٩٧٣ ، ص ١٧٥ .

(٢) عيسى محمود العقاد : التفكير فريضة إسلامية ، دار القلم ، القاهرة ، ص ١٠٥ .

(٣) السيد محمد رضا : تفسير المنار ، الهيئة المصرية للكتاب ، القاهرة ، ج ٢ ، ص ٦٧ .

(٤) سورة الحديد ، آية ٢٥ .

- ونوه بصناعة التعدين حيث يقول : ﴿ وَأَسَلْنَا لَهُ عَيْنَ الْقِطْرِ ﴾ ^(١) ، أى النحاس المذاب الذى يستعمل فى صنع الجفان والقدر .

- ونوه بصناعة الكساء فى قوله : ﴿ يَا بَنِي آدَمَ قَدْ أَنْزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاسًا يُؤَارِي سَمَوَاتِكُمْ وَرِيشًا ﴾ ^(٢) ، وحيث يقول : ﴿ وَمِنْ أَسْوَاقِهَا وَأُوتَارِهَا وَأَشْعَارِهَا أَثَاثًا وَمَتَاعًا إِلَى حِينٍ ﴾ ^(٣) .

وفى الحديث الشريف : " إن من الذنوب ذنوباً لا يكفرها إلا الله فى طلب المعيشة " .
وفيه أيضاً : " ومن طلب الدنيا حلالاً وتعففاً من المسألة وسعياً على عياله وتعطفاً على جاره لقي الله روحه كالقمر ليلة البدر " .

حرية الإرادة الإنسانية :

ونحن لا نتذكر فيما قرأنا من تاريخ الإسلام أن الجدل فى حرية إرادتنا ظهر فى عصر الرسول ﷺ أو عصر خلفائه الراشدين ، بل لسنا نعلم أن المسألة شغلت جيل الصحابة وقد تلقوا القرآن بروح نقية ، فلم يفهموا من إرادة الله ، إلا أنها حكم نافذ وقرار عادل لا يلغى الإرادة الكمبية للإنسان ، ولا يعفيه من تبعه اختياره الحر لعقيده وعمله ﴿ وَكَلَّمَ اللَّهُ لَٰمَنَ مَنَ فِي الْأَرْضِ كُلَّهُمْ جَمِيعًا أُفَانَتْ تَكْرَهُ النَّاسِ حَتَّىٰ يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ ﴾ ؟

وإنما ثار الجدل فيها فى العصر العباسى وقد بعد العهد بالنظرة الإسلامية النقية والفكر الإسلامى الصافى وشابت فهم المسلمين لكتاب دينهم شوائب دخيلة ، أضافت إلى الإسرائيليات والذهبيات والأذواق الأعمية ما حملته الشعوب الطارئة على العربية والإسلام من تراثها الفكرى والروحى فكانت مشكلة الجبر والاختيار من أعقد المشكلات التى بلبلت الأفكار وحيرت الأبواب لشدة ما تدافعت فيها الأقوال وتصادمت الأدلة .

ومع أن الفرق الإسلامية كلها عالجت المشكلة على أساس من النظر فى القرآن والسنة إلا أنها ما لبثت أن خرجت من ذلك النطاق ثم تلقفها من أراد أن يتخونها الدين أداة لتبرير الأوضاع ، فتسلطوا على الجماهير يلحون على وجدانها بأن تدع الخلق للخلاق ويحذرونها من غضب الله إن هى حاولت أن تغير واقعا أو تطمع إلى شئ من الحق والحرية

(١) سورة سبأ ، آية ١٢ .

(٢) سورة الأعراف ، آية ٢٦ .

(٣) سورة النحل ، آية ٨٠ .

والعدل فكل شئ مسير بقضاء الله وقدره لا حيلة لمخلوق فيه وكل متلقى مكتوب على جبين لا مفر منه فكان ما كان من ذبوع القول بجبرية الإسلام .

وهذه آيات القرآن تهدينا إلى أن العزم لنا وحدنا ما بقينا فى الدنيا والإرادة الكسبية إرادتنا وبهذه الإرادة الكسبية نختار لأنفسنا ما نختار متحملين مسئولية هذه الاختيار الحر^(١).

النظرة التكاملية للإنسان :

ونظرة الإسلام إلى الإنسان نظرة تكاملية اعترافا منه بأن دفعة الجسم القاهرة حقيقة فيجب أن تأخذ مكانها فى الصورة وأن إشراقه الروح المرفرفة حقيقة كذلك فيجب أن تأخذ مكانها الحقيقى فى الصورة ، والمكان الحقيقى لدفعة الجسم أنها هى التى تمد الإنسان بالطلاقة الحية التى تعمل فى واقع الأرض وتمده بالرغبات التى تحرك مشاعره فى شتى الاتجاهات ، والمكان الحقيقى لإشراقه الروح أنها هى التى تمد الإنسان فطريا بعقائده وقيمه العليا التى تواجه الدوافع فى أثناء اندفاعها أو تحاول أن تمنعها من الشطط والإسراف^(٢) .

وهذه المحاولة الدائمة هى رسالة البشرية وهى رسالة حقيقية يشهد بها كل النعم الذى أحرزته البشرية فى نظمها وعقائدها وعلاقتها ولا ينقص منها شيئا أن ترقد البشرية عنها أحيانا وتتسكس فذلك جانب من الاحتمالات الطبيعية للبشرية ولكنه ليس الاحتمال للدائم ولا الاحتمال الوحيد .

ثم .. حقيقة أخرى فى كيان الإنسان يبرزها الإسلام هى تعدد جوانبه ومن هذا لتعدد تنشأ حقيقتان ، إحدى الحقيقتين أنه لا يحدث فى أية لحظة من اللحظات أن ينحصر كيان الإنسان فى جانب واحد الجانب الجسدى أو الروحى أو الفكرى أو الاقتصادى أو المادى .. وإنما هو دائما شامل لأكثر من جانب شامل لكيانه كله فى الحقيقة^(٣) .

والحقيقة الثانية أن الإنسان لا يمارس أى نشاط من نشاطاته بجانب واحد من جوانبه ولو كان نشاطا متخصصا إلى أقصى حد .. فلا يقوم بنشاطه الجنسى بدافع الجنس وحده وإنما بمجموع كيانه ولا يقوم بنشاطه الاقتصادى والاجتماعى أو الفكرى أو السياسى بمعزل

(١) عائشة عبد الرحمن : مقال فى الإنسان ، دار المعارف ، القاهرة ، ١٩٦٩ ، ص ١١٦ .

(٢) محمد قطب : دراسات فى النفس الإنسانية ، دار الشروق ، بيروت ، ٢٠٠٤ ، ص ٦٢ .

(٣) المرجع السابق ، ص ٦٤ .

عن بقية (كيانه) ومن ثم تمتزج منه الروح بالجسد والقيم العليا بالضرورة القاهرة ..
ويخرج من ذلك كله كيان هو الإنسان .

الدور التربوي والاجتماعي للمسجد :

وإذا كانت هذه نماذج لقيم الإسلام ومبادئه ، فقد كان طبيعياً أن يسمى هذا الدين إلى إعادة تشكيل أفرادها وفقاً لها ، وكان طبيعياً كذلك أن تكون للإسلام " مؤسسته " الخاصة التي تتم في رحابها عملية التشكيل هذه .. فكانت المساجد .

لم يكن الباعث على بناء المساجد في صدر الإسلام مقصوراً على الأغراض الدينية وحدها بل كان كذلك راجعاً إلى أسباب سياسية واجتماعية . وكانت المساجد تستخدم منذ ظهور الإسلام لاجتماع المسلمين فيها كما اتخذها علماء التفسير والحديث مقراً لهم . ولما لم يكن من الممكن الفصل بين السياسة والدين أصبح المسجد المكان الذي تذاق فيه الأخبار الهامة التي تتعلق بالصالح العام (١) .

وانشاء المساجد ظاهرة معروفة في خطط القواعد الإسلامية (الأولى) ، ولم يكن اتباعها وليد المصادفة بل كان أثراً من آثار العياصة الموضوعية لإنشاء الأمصار الإسلامية في البلاد المفتوحة ، وهي سياسة ترجع إلى عصر عمر بن الخطاب ذاته ، كتب بها عمر إلى الولاة بأن يتخذوا في كل مدينة مسجداً للجماعة . واتبعت هذه العياصة في خطط القواعد الإسلامية الجديدة يقوم في وسطها المسجد الجامع وتقام من حوله خطط القبائل المختلفة . وكانت هذه المساجد الجامعة تحتل منذ البداية طابعاً رسمياً ، وكما أن العواصم الإسلامية الجديدة كانت تعتبر رمزا لظفر الإسلام فكذلك المساجد الجامعة كانت رمزا لسيادة الإسلام الروحية ومنبرا للدين الجديد والرسالة الجديدة .

وقد ارتبط تاريخ التربية الإسلامية بالمسجد ارتباطاً وثيقاً ولعل السبب في جعل المسجد مركز ثقافياً هو أن الدراسات في سنى الإسلام الأولى كانت دراسات دينية تشرح تعاليم الدين الجديد وتوضح أحكامه ، وهذه تتصل بالمساجد أوثق اتصال . وكانت حلقات العلم تعقد في مسجد قباء وهو أول مسجد بناه الرسول في الإسلام كما كان من عادة الرسول ﷺ أن يجلس في مسجده بالمدينة ليعلم أصحابه دينه وديناهم (٢) .

(١) خطط المقرئى ، الطبعة الأهلية ، ص ٤٠ .

(٢) أبو حامد الغزالي : إحياء علوم الدين ، ١٦٠ ، ص ٥٢ .

ومن الوقائع الدالة على الدور الاجتماعي والسياسي للمسجد ما كان عليه الجامع الأزهر في عهده الأول زمن الفاطميين في مصر ، فعندما استقر الفاطميون بمصر لم يجدوا مهذا خصيبا لدعوتهم بل وجدوا مجتمعا متمدنا حركته الأحداث الدينية والسياسية فكان عليهم أن يتوسلوا لغزوه بكل الوسائل السياسية والفكرية ، ومن هنا فقد أسندت رياضة الدعوة في ذلك العهد إلى موظف كبير أطلق عليه اسم " داعي الدعاة " ويساعده اثنا عشر نقيباً وله نواب ينوبون عنه في البلاد ^(١) . وكان داعي الدعاة يعقد المجالس ويقراً على الناس مصنفاته فيحضر الرجال لا في القصر فقط وإنما في الأزهر كذلك بل كانوا يعتقدون في بعض الأحوال في الأزهر مجلساً خاصاً للنساء يسمى مجلس الدعوة يلقنهن فيه أصول هذا المذهب .

وكان الدخول لتلقى العلم في المسجد كالدخول لأداء صلاة أى أنه لم يكن مقيداً بقيود فلكل فرد الحق في الاستماع لأي درس من الدروس ما دامت لديه الرغبة في العلم والقدرة على الفهم ، ولم تكن هناك شروط خاصة بالمرء أو الجنس أو الموهلات . وعلى الرغم مما لحق بالمجتمع الإسلامي من تطورات بعد ذلك لم يفقد التعليم في المسجد خصائصه الأولى المميزة له كالحرية في اختيار مواد الدراسة وفي اختيار المدرس والتحرر من المؤثرات المادية . وكان الأستاذ يختار له مكاناً معيناً في جانب صحن الجامع حيث يجلس إليه طلابه على بساط أو حصير مكونين حلقة يتصدرها الأستاذ وتختلف سعة الحلقة باختلاف مهارة العالم وشهرته ، وقد يكون بالمسجد الواحد عدة حلقات للدرس وعدة أساتذة ، ومن الأساتذة من خصص له راتب معين من الأوقاف المخصصة للمسجد ، ومنهم من لم يتقبل شيئاً ابتغاء ثواب الله ، بينما عمل على كسب قوته بمزاولة مهنة أخرى بسيطة إلى جانب التدريس ، إذ اعتبر من أكبر الفضائل لديهم ألا يتلقى الأستاذ أجراً على قيامه بالتدريس ، أما الطلاب فلم يدفعوا أجراً في الدراسات العامة في المسجد بل كانوا في حالات كثيرة يتلقون الهبات والعطايا ^(٢) .

ويمكن القول بأن الدراسة بالمسجد كانت بمثابة " الدراسات الجامعية " حيث تسبقها مرحلة أولى في " الكتاب " ولم يكن هناك ما يمكن تسميته بالمرحلة الوسطى .

^(١) وزارة الأوقاف وشئون الأزهر : الأزهر تاريخه وتطوره ، القاهرة ، ١٩٦٤ ، ص ١٦ .
^(٢) أسماء فهمي : مبادئ التربية الإسلامية ، لجنة التأليف والترجمة والنشر ، ١٩٤٧ ، ص ٢٨ .

نشأة العلوم الدينية واللغوية :

أقبل الناس على القرآن يفهمون معانيه ويفسرون آياته ويستنبطون منه الأحكام وكذلك فعلوا في الحديث . وقد بدأت هذه الحركة في حياة الرسول ﷺ ثم أخذت في الاتساع بعده وقام أصحابه بقمط وافر منها . وبديهى أن أصحاب الرسول كانوا مختلفين اختلافا كبيرا في درجتهم العلمية كاختلافهم في الفضائل الأخرى فكان بعضهم أشجع من بعض وبعضهم أكرم من بعض ، كذلك كان بعضهم أعلم من بعض (١) .

واشتهر من الصحابة ستة أو سبعة عدوا الطبقة الأولى في العلم يختلف العادون في بعضهم فيضعون واحدا مكان آخر ، وعد عشرون من الطبقة الثانية ونحو مائة وعشرين من الطبقة الثالثة ، ويطول بنا المقام لو عددنا أسماءهم وبيننا نسبهم .

هؤلاء العلماء وأمثالهم من الصحابة تفرقوا في الدولة الإسلامية في جميع أنحاءها وإن شئت فقل وزعوا على الأمصار قصدا إلى تعليمها ، فعل ذلك رسول الله في مدن جزيرة العرب فأرسل إلى اليمن والبحرين وإلى مكة بعد فتحها وكذلك فعل عمر بن الخطاب عندما اتسعت الفتوح وكثرت الأمصار فكان أن نشأت حركة علمية غلب عليها الطابع الدينى .

وفى القرآن آيات كثيرة محكمة واضحة المعنى وهى التى تتعلق بأصول الدين وأصول الأحكام وخاصة منها الآيات المكية التى تدعو إلى أصول الدين كسورة الأنعام . وهذا النوع من الآيات يستطيع الجمهور فهمه ولا سيما من كانوا عربيا بمسليقتهم ، وفى القرآن آيات صعب فهمها ولم يصل إلى معرفتها إلا الخاصة ، وكان الصحابة على العموم أقدر الناس على فهم القرآن لأنه نزل بلغتهم ولأنهم شاهدوا الظروف التى نزل فيها القرآن ومع هذا فقد اختلفوا فى الفهم على حسب اختلافهم وأدوات الفهم فبدأت علوم التفسير .

ويظهر أن تفسير القرآن كان فى كل عصر من العصور متأثرا بالحركة الثقافية فيه فلو تتبعنا ما نقل من الصحابة وصدر التابعين من تفسير وجدناهم يقصرون فى تفسير الآية على توضيح المعنى اللغوى الذى فهموه من الآية بأخصر لفظ ، فإن زادوا شيئا مما روى من سبب نزول الآية ثم زاد من بعدهم التوسع فى أخبار اليهود والنصارى ولا نجد فى التفسير عند هؤلاء أثرا من الاستنباط العلمى لحكم فقهى ولا انتصارا لمذهب دينى ، فلما جاء العصر

(١) أحمد أمين : فجر الإسلام ، النهضة المصرية ، القاهرة ، ١٩٦١ ، ص ١٤٥ .

الذى يليه وظهر الكلام فى القدر ونحوه رأينا التفسير قد حمل هذه المذاهب . ولما نمت الحركة الفقهية وجدنا المفسرين من الفقهاء يتعرضون للآيات يذكرون ما يستتبط منها من الأحكام ، وقل مثل ذلك فى قواعد النحو والبلاغة وقواعد الأخلاق .

ولم تكن الأحاديث التى يقولها الرسول صلى الله عليه وسلم تدون فاستباح قوم لأنفسهم وضع الحديث ونسبته كذبا إليه فروع الفوضى التى حدثت فيه جماعة من العلماء الصادقين فنهضوا لتتقية الحديث مما ألم به وتمييز جيده من رديئه وسلكوا فى ذلك جملة مسالك فكان بذلك أن نشأ علم خاص بالحديث كان أوسع منبع للتشريع فى العبادات والمسائل الدينية والجنائية .

ويمكن القول بأن الفترة التى عاشها الرسول بعد الهجرة هى عصر التشريع حقا ففيها كان ينزل القرآن بالأحكام وتصدر عنه الأحاديث مبينة لما يعرض من الحوادث ، وبعد وفاة الرسول واتساع الدولة الإسلامية واجه المسلمون مسائل كثيرة فى كل شأن من شؤون الحياة تحتاج إلى تشريع لم يكونوا يحتاجون إليه وهم فى جزيرة العرب ولم يدع أحد أن فى القرآن والسنة الصحيحة نصاً فى المسائل الجزئية على كل ما كان وما هو كائن ، فنتج عن هذا أن كان أصل آخر من أصول التشريع وهو ' الرأى ' الذى نظم فيما بعد وسمى القياس وأدى إلى إثراء التشريع الإسلامى بل وعده البعض البداية الحقيقية للتفكير الفلسفى فى الإسلام^(١) .

كذلك فعندما توفى رسول الله لم يعين من يخلفه ولم يبين كيف يكون اختياره فواجه المسلمون أشق مسألة وأخطرها^(٢) ، وعلى طريق سيرهم فيها كان يتوقف نجاحهم فى الحياة السياسية أو فشلهم ، وكان الخلاف حول هذه المسألة هو المهد الذى ولدت فيه ثلاث فرق من أكبر الفرق الإسلامية وهى الخوارج والشيعة والمرجئة ، أشاعت الكثير من الخلافات الفكرية التى بذرت بذور علم الكلام وتعددت بعد ذلك الفرق إلى عشرات وعشرات .

وكان مبدأ ' طلب العلم ' قراءة القرآن الكريم وحفظ آياته وفهم معانيه وهذا فى رأينا هو مبدأ التعليم وتوجيه جديد للتربية فى تاريخ الإسلام ونثبت ذلك بالرجوع إلى حقيقتين تاريخيتين ، الأولى تدوين القرآن ونشره ، والثانية عمل القراء حفظة القرآن الكريم فى نشر

(١) سعيد إسماعيل : مشكلة المنهج فى دراسة التربية الإسلامية ، الكتاب السنوى فى التربية وعلم النفس ، دار الثقافة ، ١٩٧٥ ، ص ٥٩ .

(٢) زكى نجيب محمود : المعقول واللامعقول فى تراثنا الفكرى ، دار الشروق ، بيروت ، ١٩٥٤ ، ص ٢٩ .

العلم والتعليم ، وإننا نعد القراء أول المعلمين فى تاريخ الإسلام لأنهم كانوا يعلمون الناس قراءة القرآن أو استظهاره . وعلى هذا فتدوين القرآن يعد من أهم الأعمال الدينية فى تاريخ الإسلام لأن استشهاد كثير من القراء فى الحروب ترك مجالاً للاختلاف فى الرواية فكتب القرآن فى زمن عثمان وأرسلت منه النسخ إلى الأمصار وكان هذا من بواعث حركة طلب العلم والاهتمام بالكتابة .

والى جانب تعلم القرآن خضع التعليم لجانب آخر هو تعاليم الإسلام وعادات العرب وأساسها الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر والمروءة وضبط النفس والكرم والعفو عند المقدرة . واعتمدت التربية فى المقام الأول على أسلوب القدوة والمحاكاة . وإذا قيس نظام التربية والتعليم بنتائجه جاز القول أن المبادئ البسيطة التى سادت عصر الخلفاء الراشدين فى هذا الباب نشأ عنها خير النتائج . صحيح أنها لم تنتج العلماء لكنها أنتجت الرجال الكبار (١) .

أما فى العهد الأموى فقد ظهر المعلم المحترف وظهرت الرغبة فى طلب العلم الدنيوى ابتغاء لمنافع دنيوية لا ابتغاء لوجه الله فقط ، وفى هذا ما يدل على اتساع نطاق التعليم فى دور بنى أمية عما كان عليه فى زمن رسول الله والخلفاء ، وذلك طبيعى أولاً لأن حياة العرب فى خارج الجزيرة كانت حياة مدنية تتطلب القراءة والكتابة ، وثانياً لأن بنى أمية ناصرُوا السيادة العربية أكثر من مناصرتهم السيادة الإسلامية فكان لابد لهم من الالتفات إلى الدنيا أكثر من الالتفات إلى الدين .

ثانياً - عهد النمو

التفاعل الثقافى بين الحضارة العربية والحضارات السابقة :

ولم تتبادل الجماعة الإسلامية فى المرحلة السابقة ، مع العناصر ذات الثقافة غير الإسلامية - التى كانت تعيش معها وفى داخل الدولة الإسلامية السياسية - الحديث فى ثقافة الوقت ولا فى الديانة الجديدة : وهى الإسلام ولا فى منزلة هذه الديانة من الديانات السابقة ، كما لم تشترك معها فى مجالس العلم أو الجدل ، ولذا كان تفكيرها ذا طابع خاص هو : طابع البساطة والصراحة والبعد عن الطابع الفلسفى فضلاً عن أنه عربى محض (٢) .

(١) عبد اللطيف الطيباوى : محاضرات فى تاريخ العرب والإسلام : دار الأتلس ، بيروت ، ١٩٦٣ ، ص ٢٥ .

(٢) محمد البهى : الجانب الإلهى من التفكير الإسلامى : دار الكتب العربى ، القاهرة ، ١٩٦٧ ، ص ٧٢ .

وهنا فى المرحلة الثانية لتطور الثقافة العربية ومنذ القرن الثانى الهجرى على وجه التحديد ، نرى ظاهرة أخرى للجماعة الإسلامية تكاد تكون على الضد من الظاهرة السابقة هذه الظاهرة الجديدة هى ظاهرة الاختلاط والامتزاج فى الحديث وفى المجالس العلمية فى الجدل مع العناصر ذات الثقافة غير الإسلامية .

والجماعة الإنسانية لا تنتقل من ظاهرة إلى نقيضها فجأة وبالأخص فى المظاهر العقلية بل بين الظاهرة السابقة لجماعة ما والأخرى اللاحقة لها تدخل الجماعة فى حل تختلف فى القرب أو السبع من إحدى الظاهرتين وتكون هذه الحال للمرحلة أشبه بحال الانتقال .

فإذا اتخذنا القرن الثانى الهجرى بدءا للمرحلة الثانية التى لها مظهر خاص يختلف عن مظهر المرحلة السابقة ، فليس معنى ذلك أن القرن الثانى بدايته تنطبق عليه ظاهرتة بنسبة واحدة ، وكذلك القرن الأول فى نهايته تنطبق عليه ظاهرتة الخاصة به بالنسبة عينها التى كانت لبدايته أو وسطه مثلا .

فالجماعة الإسلامية أخذت فى أواخر القرن الأول تخرج عن عزلتها فعملت على رفع الحوائل ثم وجدت من الدوافع ما شجعها على الاختلاط عن طريق الأحاديث الشفوية فى المجالس مع أرباب الثقافات الأجنبية ، ثم ما حملها فوق ذلك على نقل هذه الثقافات وترجمتها إلى اللغة العربية - والظاهرة تعطى لجماعة من الجماعات الإنسانية إذا تم تكون الظاهرة وبسدت سيطرتها على الجماعة ، ولا يكون ذلك فى الفترة التى تعد فترة تمهيدية لها أو فيما يسمى حال الانتقال من ظاهرة إلى أخرى .

ويمكن إجمال البواعث التى دفعت العرب إلى رفع الحوائل بينهم وبين الحضارات الأخرى فيما يأتى (١) :

١- احتكاك العرب بغيرهم من الأمم أطلع العرب على ثقافات جديدة فأحب العرب أن يوسعوا بهذه الثقافات آفاقهم الفكرية ولعل ذلك كان فى أول الأمر عملا للتقليد المحض نلاحظه عند بداية التفاعل الثقافى بين حضارة وأخرى .

(١) عمر فروح : تاريخ العلوم عند العرب ، دار العلم للملايين ، بيروت ، ١٩٧٠ ، ص ١١٢ .

٢- حاجة العرب إلى علوم ليست عندهم مما كانوا يحتاجون إليه في الطب وفي معرفة الحساب والتوقيت لضبط أوقات الصلوات وتعيين بدء أشهر الصوم والحج وأول السنة .

٣- القرآن الكريم وحثه على التفكير وطلب العلم .

٤- العلم من توابع الحضارة حيثما تزدهر البلاد سياسيا واقتصاديا ويكثر فيها الترف ويستبهر العمران تتجه النفوس إلى الحياة الفكرية والتوسع في طلب العلم .

٥- رعاية الخلفاء للنقل والنقطة فقد كان الخلفاء يدفعون للناقل نقل الكتاب المنقول ذهباً ، ثم إن الخليفة المأمون أنشأ (بيت الحكمة) وجمع فيه الناقلين فأصبح نقل الكتب الفلسفية جزءاً من سياسة الدولة وكان ثمة أسر وجبهة غنية محبة للعلم تبذل الأموال في سبيل الحصول على الكتب وفي سبيل نقلها فإن آل المنجم كانوا ينفقون خمسمائة دينار في الشهر على نقل الكتب .

٦- وزعم بعضهم أن حب السريان لتقافتهم وحرصهم على نشرها حملهم على نقل الكتب الفلسفية إلى اللغة العربية ، ولا وجه لهذا الزعم لأن الكتب المنقولة لم تكن سريانية مسيحية بل وثنية يونانية أو هندية . ثم إن هؤلاء النقلة السريان لم ينقلوا هذه الكتب تطوعاً وابتداءً من عند أنفسهم ولا هم نقلوا الكتب التي أحبوا نقلها بل كانوا ينقلون ما يطلب منهم نقله بأجر .

أما الأمم التي نقل العرب عنها وتفاعلوها مع حضارتها فهي ^(١) :

الفرس : فقد كان للفرس آدابهم وفنونهم كما كان عندهم علوم الأمم السامية السابقة التي سكنت العراق كالبابليين والأشوريين ، وكذلك علوم الإغريق التي كانت قد انتقلت إلى بلاد فارس عن طريق السريان ، وقد نقل العرب والفرس الذين تعلموا العربية كثيراً من كتب الآداب الفارسية والتاريخ والنظم .

الهنود : وقد نبغ الهنود في حساب وعلم النجوم وتجارب الطب كما نبغوا في بعض الصناعات لطبع السيوف ونقل العرب علوم الهند كالحساب وحركات الكواكب وبعض طرق حلول المسائل الفلكية وبعض الأزياج (جمع زيچ وهي الجداول الفلكية) .

(١) أبو الفتح رضوان : التومية لعربية ، دار الثقافة ، ١٩٦٤ ، القاهرة ، ص ١٩٤ .

المصريون : وقد كان عند المصريين فنونهم وصناعاتهم خصوصا فن العمارة والصناعات الدقيقة ، وكان في مصر علوم الإغريق فقد كان بالإسكندرية عاصمة مصر قبل الفتح العربى نهضة علمية حاولت بها الإسكندرية أن تستعيد مكانتها السابقة كمركز للعلوم الإغريقية كما أخذ العرب كثيرا من النظم التى كانت سائدة فى مصر خصوصا تنظيم الدولة ودواوين الحكومة وحساباتها .

اليونان : فقد انتشرت علوم اليونان وفلسفتهم فى الشرق بعد فتح الإسكندرية ثم عندما اضطهد أباطرة الرومان المسيحيون علوم اليونان على فلسفة الإغريق وعلومهم وقد ترجم العرب هذه العلوم .

أما من حيث المواقع التى كانت مركز الالتقاء الحضارى فالأستاذ ماكس مايرهوف ^(١) يقدم لنا بحثا عن انتقال العلم اليونانى إلى العالم العربى ، وقد أثبت فى مطلع بحثه أن مدرسة الإسكندرية كانت لا تزال قائمة وقت أن فتح العرب مصر وكانت تبعا لهذا المدرسة اليونانية البحتة الوحيدة فى البلاد التى غزاها العرب فى نفعهم الأولى ، ثم ينقل عن الفارابى قوله : انتقل التعليم (بعد ظهور الإسلام) من الإسكندرية إلى إنطاكية وبقى بها زمنا طويلا إلى أن بقى معلم واحد ، فتعلم منه رجلان وخرجا ومعهما الكتب فكان أحدهما من أهل حران والآخر من أهل مرو . وكما وجدت مدارس علمية وفلسفية فى الإسكندرية وإنطاكية وحران لم يمسيها المسلمون بسوء وجدت مدارس فلسفية وعلمية فى (الرها) و(نصيبين) و (المدائن) و (جند يسابور) يشرف عليها أساتذة نسطوريون .

والمسؤال الذى يبرز لنا هنا : أى أنواع الثقافات كان أكبر أثرا وأشد نفوذا وأهوى سلطانا ؟ الإجابة المطلقة على هذا السؤال عسيرة . فقد كان لكل ثقافة (منطقة نفوذ) لا تكاد تزاحمها فيها الثقافة الأخرى ^(٢) ، فطبيعة الثقافة اليونانية عقلية منطقية تحاول أن تجعل لكل شىء مقدمات ونتائج ، وهذا الضرب تجلى عند العرب فى الرياضيات والفلسفة وما إليها وأتت هذه الأثىاء فى العهد العباسى ومواقعها خالية تقريبا فكان من السهل أن تصطبغ بالصبغة اليونانية من غير مزاحمة . وطبيعة الثقافة الفارسية على ما وصلت إلينا فلسفة عملية من حكم تصاغ حول العدل والظلم ونظام الحكم ونحو ذلك مما تراه فى الأدب الكبير والصغير لابن المقفع ، فليس فيها مجال كبير للنظريات كما هو الشأن عند اليونان ولكن

^(١) على سبامى النشر : نشأة الفكر الفلسفى فى الإسلام ، دار المعارف ، ج ١ ، ١٩٦٥ ، ص ٧٠ .

^(٢) أحمد أمين : ضحى الإسلام ، النهضة المصرية ، ج ١ ، ١٩٥٦ ، ص ٣٩٦ .

تجارب عملية تجرب فتصاغ فى قالب حكمة أو مثل ، وهذا النوع استساغه العرب فى أدبهم لأنه أشبه بأمثالهم ، وطبيعة الثقافة الهندية مزيج من حكمة كالتى قلنا فى الفرس تتجلى فى مثل كليلة ودمنة ومن نظريات فلسفية ورياضية كالتى عند اليونان ، ولكن يلاحظ البيرونى أنهم لا يجيدون تعليلها ولا البرهان عليها كما يفعل اليونان .

وطبيعة الثقافة العربية الأدبية لسانية أبين الأثياء فيها ، جمالها الفنى ، وأنها بنت البديهية ونتيجة السليقة ووليدة الفطرة وهذا هو السبب فيما حكى الجاحظ إذ يقول " وقد نقلت كتب وترجمت حكم اليونان وحولت آداب الفرس فبعضها ازداد حسنا وبعضها ما انتقص شيئا ولو حولت حكمة العرب لبطل ذلك (المعجزة) الذى هو الوزن على أنهم لو حولوها لم يجدوا فى معانيها شيئا لم تذكره العجم فى كتبهم التى وضعت لمعاشهم وقطنهم وحكمهم " (١).

ازدهار العلوم الطبيعية والرياضية (الفنون والصناعات) :

تجمعت إذن الظروف الداخلية مع المؤثرات الخارجية لتشكل فى تفاعلها مناخا طيبا أتاح الفرصة لازدهار ثقافى لم يعرف التاريخ قبل ذلك له مثيلا . ولكى نوفى هذا الموضوع حقه فإن هذا يحتاج إلى عدة كتب فنجتزئ بعض المظاهر :

فى مجال (الطب) نجد أن التقاليد حدثت من ممارسة تشريح الجثث الأدمية فتحجر علما التشريح والفسولوجيا فى القلب الذى صبها فيه جالينوس وأبقراط ، ولكن النزعة التى يمتاز بها الشرقى وميوله الفكرية اجتذبتة نحو أربعة اتجاهات أولها الملاحظة الإكلينيكية الدقيقة والتدريس إلى جانب السرير بالمستشفيات . ثانيهما الكيمياء التى بلغ رائدها جابر بن حيان القمة بها . ثالثهما علم النبات وخواصها حيث أضاف العرب إليه الكثير . رابعها تحسين وتنظيم المستشفيات التى ورثوا فكرتها عن بيزنطة ، وهذه الصفات الأربع بالإضافة إلى فضل العرب فى الحفاظ على التراث القديم وفى إتاحتها لعملاء النهضة الغربية هى المميزات التى جعلت من الطب العربى سراجا وهاجا أضاء العالم قرونا عدة (٢) .

فى العلوم الطبيعية يذكر (ديوارنت) أن كتاب المناظر فى البصريات لابن الهيثم " أعظم مؤلف فى العصور الوسطى بأجمعها جرى على الأسلوب العلمى فى طريقته وتفكيره " (٣) . وقد درس ابن الهيثم انكسار الضوء عند مروره فى الأوساط الشفافة كالهواء

(١) المرجع السابق ص ٤٠١ .

(٢) بول غليونجى : ابن النفيس ، أعلام العرب (٥٧) مكتبة مصر ، دوت ، ص ٥٨ .

(٣) ول ديوارنت : قصة الحضارة ج ٢ ، م ٤ ، عصر الإيمان ، ترجمة محمد بدران ، لجنه التأليف والترجمة والنشر ، ١٩٦٤ ، ص ٢٧٥ .

والماء واقترب مع اختراع العدسة المكبرة مما جعل روجر بيكون و (وينلو) Wnelo من الأوربيين بعد ٣٠٠ عام من ذلك الوقت يعتمدون على بحوثه فيما بذلوه من الجهود لاختراع المجهر والمرقب . وقد رفض ابن الهيثم نظرية إقليدس وبطليموس الفلكي القائلة بأن رؤية الجسم تنشأ من خروج شعاع ضوئي من العين تصل إلى الجسم المرئي وقال إن صورة الجسم المرئي تصل إلى العين ومنها تنتقل بواسطة الجسم الشفاف إلى العدسة .

وهناك اختراع نو بال ينسب إلى الإفرنج وهو للمسلمين نعى اختراع البارود فالمشهور عند الإفرنج أن مخترع البارود اسمه (شوارتر) سنة ١٣٢٠م (٧١٩هـ) ولكن روجر بيكون أشار إلى مزيج من قبيل البارود كان شائعاً في أيامه . والصحيح أن المسلمين أسبق الناس إلى استخدام البارود وإذا لم يكونوا اخترعوه فلا أقل من أنهم أوصلوه إلى ما عرف به الأجيال الوسطى . فقد ذكر (كوندى) المستشرق الأسباني المتوفى سنة ١٨٢٠ أن أهل مراکش استخدموا الأسلحة النارية في محاربتهم سر قوسة عام ١١١٨ م^(١) .

- واكتشف في عشرينات هذا القرن مخطوط عربي قديم يرجع عهده للمائة التاسعة الهجرية القرن ١٥ الميلادي للملاح العربي ابن ماجد يعتبر أهم وثيقة في الجغرافيا الفلكية والملاحية وصلتنا من العصور الوسطى على الإطلاق ، وتحتصر أهميته في أنه أقدم الوثائق الجيدة التي وصلتنا عن الملاحة وفنون البحر في البحار الجنوبية ، كما أنه يرد فيه ذكر اسم لعلم جديد هو ' علم البحر ' بمعناه الواسع مما نعرفه اليوم باسم علم الاقيانوغرافيا^(٢) .
Occeanography .

- والمسلمون هم الذين صنعوا الصابون لأول مرة ، كانوا يعملون فيه صنفين صنفاً من الصودا وصنفاً آخر أبيض اللون من البوتاس وقد ذكره ابن دريد سنة ١٩٣٣م . والمسلمون هم الذين أدخلوا السكر المصنوع من القصب في أوروبا ، وكان الهنود هم أول من زرع قصب السكر واستنبطوا منه السكر ، ومن الهنود انتقل إلى فارس في القرن السابع ومن ثم عرفه العرب لما استولوا على فارس فقاموا بالتوسع في زراعته في جميع المناطق المعتدلة المناخ في أنحاء الدولة الإسلامية المترامية الأطراف . والورق اكتشفه الصينيون لكنه لم يدخل الغرب ولم تعرفه أوروبا إلا عن طريق المسلمين ، كذلك برع المسلمون في كثير من

^(١) جرجى زيدان : تاريخ التموين الإسلامي ، ج ١ دار الهلال ، ص ٢٠١ .

^(٢) أنور عبد العليم : ابن ماجد الملاح ، أعلام العرب (٦٣) دار الكتب العربي ، القاهرة ، ١٩٦٧ ، ص ٥ .

الصناعات القائمة على الكيمياء فاستخرجوا الذهب بطريق الغسل وقطروا الزئبق من الزنجفر وصنعوا الصلب واستخلصوا العطور بتقطير الورد وصنعوا ألوان الحبر المختلفة (١).

وقد لا يصدق بعض الذين يعنون بالعلوم الرياضية أن "ثابتا بن قرة" من الذين مهدوا لإيجاد التكامل والتفاضل ، وقد لا يخفى ما لهذا العلم من أهمية على الاختراع والاكتشاف فلولا إنتاج هذا العلم ولولا التسهيلات التي أوجدها في حلول كثير من المسائل العويصة والعمليات المتوتية لما كان بالإمكان الاستفادة من بعض القوانين الطبيعية واستغلالها لخير الإنسانية (٢).

اتجاهات التطعيم وملاح الفكر التربوى فى عهد الازدهار :

وكان لهذا كله بطبيعة الحال أثره على التربية والتعليم ، فلم يكتف الناس بآثار العرب ومثل الإسلام ، بل أراد كل متعلم أن يكون له نصيب من الثقافات الجديدة ، فالمعلم الذى كان يقصر همه على تعليم القراءة والكتابة والحساب وشيء من الأخبار والقصص أصبح لا شأن له ، وصار الناس يتطلعون إلى المعلم الكبير الذى يعرف القرآن والحديث كما يعرف اللغة والأدب وكما يعرف الفلسفة والكيمياء . هذا هو الاتجاه العام ، ولكن كان يحدث أن تعادى فرقة نوعا من أنواع العلوم وتجارب أصحابه وتجرب أن تقضى عليه بواسطة سلطان الدولة أو غيرها .

ويظهر أن التعليم أصبح علاقة روحية بين المتعلم والمعلم وأن من أغراضه أن ينال المتعلم قسما كافيا من الثقافة العامة لا نوعا خاصا من المعرفة والبحث فى الأجور التى يأخذها بعض المعلمين لا يمنع من صحة هذا رأى لأن الأجور كانت مسألة شخصية تتوقف على المعلم وحاجته إلى المال ورغبته فى جمعه (٣).

ويظهر أيضا أن التعليم كان خاصا لا عاما بمعنى أن الأسلوب والمادة والنتيجة كانت كلها تتوقف على مقدرة المعلم وثقافته واستعداد تلميذه لا على شيء آخر مثل الرقابة التى تقوم بها الدولة أو غيرها أو البرامج التى تضعها بعض المدارس أو الشهادات التى

(١) عبد الرحمن بدوى : دور العرب فى تكوين الفكر الأوروبى ، الأندلس المصرية ، ١٩٦٧ ، ص ٣٧-٣٨ .

(٢) ندرى حافظ طوقان : تراث العرب العلمى فى الرياضيات والفلك ، جامعة الدول العربية ، القاهرة ، ١٩٥٤ ، ص ٦٨ .

(٣) عبد اللطيف الطيباوى ، ص ٣٣ .

تصدرها ، إذ نعرف على سبيل التحقيق أن الدولة لم تقم على مراقبة التعليم ولم تضع البرامج ولم تصدر الشهادات باسمها أو باسم ديوان من دواوينها .

والحق أن تعليم البنات لم يكن شائعا كشيوع تعليم الذكور ولكن المصادر تذكر عددا كبيرا من المتعلمات الصالحات أو بعضها يذكر اختلاف البنات إلى مكتب المعلم وبعضها الآخر يذكر اختلافهن إلى مدرسة ، ولكن الظاهر أن كثرة اللواتى نلن قسطا من المعرفة والعلم كن يتعلمن بصورة خاصة فى بيوتهن أو فى أماكن شبيهة ببيوتهن وقد وصلتنا أخبار عدد كبير من النساء اللواتى اشتهرن بالعلم والزهد والشعر ، فعائشة أم المؤمنين تعتبر من أهم مراجع الحديث الشريف ورابعة العدوية الزاهدة المتصوفة فاقت الرجال بزهدها وتصوفها، وعلية بنت المهدي كانت تحسن قول الشعر وتلحينه .

وظهرت المدارس فى هذا العهد أيضا ، يقول المقريزى * أن المدارس مما حدث فى الإسلام ولم تكن تعرف فى زمن الصحابة ولا التابعين وإنما حدث عملها بعد الأربعمئة من سنة الهجرة * (١) ، وعلى رواية الذهبى أن أول من أنشأ المدارس فى الإسلام هو نظام الملك الذى وزر للملاجقة فى النصف الثانى من القرن الخامس للهجرة ، ولكن بعض المؤرخين كالسبكى والسيوطى يقرون أن المدرسة البيهقية قد أسست بنيسابور قبل أن يولد نظام الملك وأن المدرسة السعدية قد أسست بالبلدة نفسها على يد الأمير نصر بن سبكتكين أخى السلطان محمود المشهور قبل تأسيس مدارس نظام الملك (٢) .

- أما عن ثمرات الفكر التربوى الإسلامى فى ذلك الوقت فيمكن أن تجمل الإشارة إلى بعضها فيما يلى :

١- ذهب ابن سينا إلى أن الإنسان قد ولد على الفطرة وأنه ليس خيرا بطبعة أو شريرا بطبعة وإن كانت نظرته أقرب إلى الخير منه إلى الشر ، وهذا الإنسان يتغير ويتشكل وفق مؤثرات البيئة ونظمها التربوية ، وإذا تعود الشر أصبح شريرا وإذا تعود الخير أصبح خيرا ، وفى ذلك يقول * فإذا فطم الصبى عن الرضاع بدئ بتأديبه ورياضة أخلاقه قبل أن تهجم عليه الأخلاق اللئيمة وتفاجئه الشيم الذميمة فإن الصبى تتباعد إليه مساوى الأخلاق وتتأثر عليه العادات الخبيثة فما تمكن منه من ذلك غلب عليه فلم يستطيع له مفارقة ولا عنه

(١) للمرجع السابق ص ٧٦ .

(٢) المرجع السابق .

نزوعاً^(١) . ويؤكد ذلك في موضع آخر فيقول : ' والأخلاق كلها ، الجميل منها والقيبح هي مكتسبة ويمكن للإنسان متى لم يكن له خلق حاصل أن يحصله بنفسه ومتى صادفت أيضاً نفسه على خلق حاصل جاز أن ينتقل بإرادته عن ذلك إلى ضد ذلك الخلق^(٢) . ورأى ابن باجه أن الإنسان لا يستطيع أن يبلغ ما يصبو إليه من المعرفة والحياة السعيدة إلا بالأفعال الصادرة عن الروية وبتمية العقل تنمية حرة خالصة من القيود ، والفعل الحر الاختياري هو الذى يصدر بعد الفكر والروية أى هو فعل يشعر فاعله بغاية يقصدها منه ، فمثلاً إذا حطم الإنسان حجراً لأنه عثر به فهو يفعل فعلاً لا غاية وراءه وهو يشبه فعل الطفل أو الحيوان إذا حطمه لكى لا يعثر به غيره ، ففعله إنسانى ويمكن أن نسميه صادراً عن العقل يقول : ' وكل ما يوجد للإنسان من الأفعال المختصة به مما اختص به من طباعه المتميزة عما سواه فهو بالاختيار وعنى بالاختيار الإرادات الكائنة عن روية^(٣) .

- ومن المعايير التى كان المسلمون يختارون فى ضوئها ما يتعلمونه وما يعلمونه ، قيمة المادة من حيث أثرها التدريبي أو قيمتها فى إكساب عادات عقلية خاصة تنقل إلى ميادين أخرى غير ميدان المادة الخاص الذى تكونت فيه أول الأمر فيقال عن المنطق مثلاً ' إنه آلة قانونية تعصم مراعاتها الذهن عن الخطأ فى الفكر ' أو ' أنه أصل كل علم وتقويم كل ذهن^(٤) .

وفى قول الفارابى عن وظيفة المنطق أوضح مثال للقيمة التدريبية للمادة فهو يذكر أن صناعة المنطق تعطى جملة القوانين التى من شأنها أن تقوم العقل وتسدد الإنسان نحو طريق الصواب ونحو الحق فى كل ما يمكن أن يغلط فيه من المعقولات والقوانين التى تحفظه وتحوطه من الخطأ والزلل والغلط فى المعقولات .. أما من زعم أن الدربة بالأقاويل والمخاطبات الجدلية أو الدربة بالتعليم مثل الهندسة والعدد تغنى عن علم قوانين المنطق أو تقوم مقامه أو تفعله أو تعطى الإنسان من القوة على امتحان كل قول وكل حجة وتسدد إلى الحق واليقين حتى لا يغلط فى شئ من سائر العلوم أصلاً ، فهو مثل من زعم أن الدربة

(١) المرجع السابق .

(٢) المرجع السابق .

(٣) ت . ج . دى يور : تاريخ الفلسفة فى الإسلام ، ترجمة محمد عبد الهادى أبو ريدة ، ج ٣ ، لجنة التأليف والترجمة والنشر ، القاهرة ، ص ٢٨٥ .

(٤) مبادئ التربية الإسلامية ، ص ٧٧ .

والارتباط بحفظ الأشعار والخطب والاستكثار من روايتها يغنى فى تقويم اللسان وفى ألا يلحن الإنسان من قوانين النحو يقوم معا بها * (١) .

- نص ابن خلدون على ضرورة وقوف المربي على قصور عقل الطفل وعدم اكتمال نضجه وهى حقيقة يظهر أن معلمى عصره أهملوها فى طرق تدريسهم فهو يقول * وقد شاهدنا كثيرا من المعلمين لهذا العهد الذى أدركنا يجهلون طرق التعليم وإفلاته ويحضرون المتعلم فى أول تعليمه المسائل المعقدة من العلوم ويطلبون ذهنه فى حلها ويحصبون ذلك مرانا على المتعلم وصوابا فيه فإن قبول العلم والاستعداد فيه ينشأ تدريجيا فيكون المتعلم أول الأمر عاجزا عن الفهم بالجملة إلا الأهل وعلى سبيل التقريب والإجمال بالأمثلة الحسنة ، ثم لا يزال الاستعداد فيه يتدرج قليلا بمخالفة مسائل ذلك الفن وتكرارها عليه والانتقال فيها من التقريب إلى الاستيعاب الذى نعرفه حتى تتم الملكة فى الاستعداد ثم فى التحصيل * (٢) .

أثر الحضارة الإسلامية على الحضارة الغربية الحديثة :

يقول لوبون * كلما أمعنا فى درس حضارة المسلمين وكتبهم العلمية واختراعهم وفنونهم ظهرت لنا حقائق جديدة وآفاق واسعة ولمرعان ما رأينا المسلمين أصحاب الفضل فى معرفة القرون الوسطى لعلوم الأقدمين وأن جامعات الغرب لم تعرف لها مدة خمسة قرون موردا علميا سوى مؤلفاتهم وأنهم هم الذين مدنوا أوروبا مادة وعقلا وأخلاقا وأن للتاريخ لم يعرف أمة أنتجت ما أنتجوه فى وقت قصير وإنه لم ينفعهم قوم فى الابتداع الفنى * (٣) .

وتشارك المستشرقة الألمانية (هونكه) لوبون فى رأيه فتؤكد أنه من خطئ الرأى أن ينظر الغربيون إلى أوروبا على أنها هى وهى فقط العالم الحديث ، ومن الحمالة أن يقول أن تاريخ أوروبا هو تاريخ هذا العالم ... إن أوروبا كما تؤكد هونكه تدنن للعرب وللحضارة العربية وأن الدين الذى فى عنق أوروبا وسائر القارات الأخرى للعرب كبير جدا (٤) .

ومن الأمثلة التى سبقت فى هذا الشأن القانون الأتى فى المثلاث : جتا س جتا ص - $\frac{1}{2}$ جتا (س + ص) + $\frac{1}{2}$ جتا (س - ص) ، إذ يقول العلامة Suter * وقد كان لهذا

(١) الفارابى : إحصاء العلوم ، القاهرة ، ١٩٣١ ، ص ١١ - ١٦ .

(٢) ابن خلدون : المقدمة ، طبعة الشعب ، القاهرة ، ص ٤٩٤ .

(٣) جوستاف لوبون : حضارة العرب ، ترجمة عادل زعيتر ، مطبعة عيسى البلبى الحلبي ، ١٩٦٤ ، ص ٢٦ .

(٤) سيجريد هونكه : شمس الله تشرق على الغرب (فضل العرب على أوروبا) ، ترجمة فؤاد حسنين على ، النهضة العربية ، ١٩٦٤ ، المقدمة .

القانون أهمية كبرى قبل كشف اللوغاريتمات عند علماء الفلك في تحويل العمليات المعقدة (لضرب) العوامل المقدره بالكسور الستينية فى حساب المثلثات إلى عمليات (جمع) (١) .
وساعد على نشر الصيدلة فى أوربا ، قرب صقلية من أوربا أولا ، وترجمة
قسطنطين الإغريق للكثير من كتب الطب العربية ثانيا ، ولم يقف أثر هذه النهضة على
صقلية وجنوب إيطاليا بل بلغ وادى الرين كما هو ثابت من مؤلفات هيلد جاردفون رينجن
Hildegard Von Ringen ، وبعد وفاة قسطنطين بزمن قصير نجد عميد مدرسة سالز
وهو (نيكولوس بريبورستيروس) Nicolaus Praepositus يضع كتابا فى الموصفات
العلاجية على غرار الكتب العربية وظل هذا الكتاب مستعملا لأجيال كثيرة من الصيادلة الذين
ظهروا فيما بعد (٢) .

وينكر لويون أن الرازى وضع آثار من ظهر قبله من الأطباء على محك النقد الشديد
فوق فراش المرض ، وكان ما كتبه فى بعض الحميات ذات البثور كالحصبة والجدرى معول
الأطباء زما طويلا ، وأشهر كتبه ، كتاب (الحاوى) الذى جمع فيه صناعة الطب وترجمت
أكثر كتبه إلى اللغة اللاتينية وطبعت عدة مرات فى البندقية سنة ١٥٠٩ م وفى باريس سنة
١٥٢٨ وسنة ١٧٤٨ وظلت جامعات الطب فى أوربا تعتمد على كتبه زما طويلا .

ومن العرب الذين عرفتهم أوربا فى علم الفلك (الخوارزمى) فإن الألواح الفلكية
التي وضعها ، قد ترجمها إلى اللاتينية ادهردأوفياث Adehard of Bath سنة ١١٢٦ م ،
كذلك أبا العباس أحمد بن كثير الفرغانى وله فى الفلك كتاب كان ذا أهمية بالغة فترجمه إلى
اللاتينية خوان الاشبلى و (جيررود الكريمنى) كما ترجمه إلى العربية يعقوب الأناضولى
ونشرت الترجمة اللاتينية مع النص العربى فى امستردام سنة ١٦٦٩ م (٣) .

أما الجهد العربى الثقافى فى إرساء دعائم منهج البحث العلمى الحديث وخاصة
التجريبى ، فجهد ملحوظ وواضح ، فابن تيمية يؤمن بالجزئيات ويرى أن المنطق القياسى لا
يصل إلى شئ واقعى وينتهى إلى القول بأن التجربة وحدها أقرب إلى الحقيقة مما ينتجه
الفلاسفة بقياس (٤) . وفى دراسة ضخمة للدكتور على سامى النشار ، وصل إلى أن

(١) طوقان ، ص ١٥ .

(٢) هونكه ، ص ٢٥١ .

(٣) على سامى النشار : مناهج البحث عند مفكرى الإسلام واكتشاف المنهج العلمى فى العالم الإسلامى ، دار

المعارف ، ١٩٦٧ ، ص ٢٨٩ .

(٤) عبد الرحمن بدوى ، ص ١٩ .

الأصوليين - علماء أصول الفقه وعلماء وأصول الدين - لم يقبلوا المنطق الأرسطي ووضعوا منطقاً آخر أميز صفاته أنه يخلو من مباحث الميتافيزيقا ، مما جعله منطقاً يتفق مع الحاجة الإنسانية العملية (١) .

كذلك أكد (لوبون) أن العرب بعد أن كانوا تلاميذ معتمدين على كتب اليونان ، أدركوا أن التجربة والترصد خير من أفضل الكتب ، وإذا كان الفضل يعزى إلى بيكون فيقال أنه أول من أقام التجربة والترصد للذين هما ركن المناهج العلمية الحديثة لكنه يجب أن يعترف اليوم بأن ذلك كله عمل العرب وحدهم (٢) .

وأشار إخوان الصفا إلى حقيقة أن الخبرة هي مصدر المعرفة ، فقالوا * واعلم أن هذه المعلومات التي تسمى أوائل في العقول ، إنما تحصل في نفوس العقلاء باستقراء الأمور المحسوسة شيئاً بعد شيء ، وتصفحها جزءاً بعد جزء ، وتأملها شخصاً بعد شخص * (٣) .

وإذا كان من أكبر الموانع في سبيل البحث العلمي ، عبارة السلف التي تسمى بالعرف والافتداء الأعمى بأصحاب السلطة الدينية ، والخوف المهين لأصحاب السلطة الدينية ، فإن الإسلام لم يقبل من المسلم أن يلغى عقله ليجرى على سنة آباءه وأجداده ، ولم يقبل منه أن يلغى عقله خضوعاً لمن يسخره باسم الدين في غير ما يرضى العقل والدين ، ولم يقبل منه أن يلغى عقله رهبة من بطش الأقباء وطغيان الأمم (٤) .

ولنا بعد ذلك أن نسأل : إذا كان العرب قد عرفوا الجامعات في العصور الوسطى قبل أوربا بعدة قرون ، فهل تأثرت الجامعات الأوروبية عند نشأتها بالجامعات الإسلامية ؟ إن الدارس لتاريخ الأزهر والمدرسة النظامية ببغداد ، يستطيع أن يلمس تشابهاً واضحاً بين النظم التي كان معمولاً بها في الجامعات الإسلامية وتلك التي سارت عليها الجامعات الأوروبية عند نشأتها . ويعترف بذلك الباحثون الأوروبيون أنفسهم ، فيقول جيوم : " أن طبيعة الدراسة المنظمة ، والعلاقة بين الأستاذ وتلميذه ، والهيئات المالية التي عاشت عليها الجامعات وشتى نواحي النشاط في الحياة الجامعية كانت بدون شك متشابهة إلى حد كبير سواء في بغداد أو

(١) المرجع السابق ، ص ٨٩ .

(٢) لوبون ، ص ٤٣٥ .

(٣) أحمد أمين : ضحى الإسلام ، ج ٢ ، ص ١٧ - ١٨ .

(٤) عجلان محمود العقاد : أثر العرب في الحضارة الأوروبية ، دار المعارف ، ١٩٤٦ ، ص ٢٣ .

فى اكسفورد ^(١) ، فنظام المعيدىن الذى عرفته الجامعات منذ العصور الوسطى ومازال قائما ، سبق أن طبقة العرب فى معاهدهم . وتؤكد (هونكه) أن العرب اسهموا فى تأسيس جامعة سالرنو فى جنوب ايطاليا حيث كان محتلا عربيا فى القرن التاسع الميلادى ^(٢) .

ثالثا : عهد الركود

نستطيع مما تقدم أن نتصور مدى التقدم الحضارى الذى أحرزه المسلمون ونضيف هنا أن تقدم المسلمين لم يقتصر على العلم النظرى والتأليف فيه ، ولكنه تعداه إلى حياته المجتمع المجتمع نفسه . ولقد اشتهر المسلمون بأنهم قوم عمليون ، وتجار ورحالة وفقهاء وصناع . وعرف عن العقلية الإسلامية أنها عقلية ايجابية تقيس كل شئ بنفعه . ومن هنا كانت علومهم فى معظمها تطبيقية ، وللعلم عندهم وظيفة اجتماعية قبل أن يكون لذة عقلية ، أو بحث عن الحقيقة من أجل البحث ، فالحساب عندهم وسيلة للتجارة والمحاسبة ، والفلك أداة للسفر فى البحر أو فى الصحراء أو لحساب المواسم والأعياد وأوقات الصلاة . والطب للعلاج ، والكيمياء للحصول على الذهب .. وهكذا .

وكان ينبغي أن تضطرد هذه الحياة الإسلامية التقدمية حتى تصل إلى نتيجتها الطبيعية التى وصلت إليها الحركة العلمية فى أوروبا فى القرن ١٨ ، عندما انتهت إلى الثورة الصناعية ، وعصر العلوم الحديثة فى القرن العشرين . ولكن الحضارة الإسلامية وقفت عند الحد الذى وصفناه ، اللهم إلا من استثناءات حدثت بقوة الاندفاع أكثر منها بالقوة الذاتية ^(٣) .

أما السبب فى هذا فهو عدد من النحوس توالى على العالم الإسلامى فى القرن الحادى عشر ، فالشرق العربى وقع فى أيدى الأتراك السلاجقة منذ سنة ١٠٥٠ هـ وفى المغرب العربى ، أخذ أمراؤه المسيحيون يستولون على المدن الإسلامية واحدة بعد أخرى : طليطله (١٠٨٥) سرقسطه (١١١٨) . وكذلك سقط جنوب ايطاليا قبل سنة ١٠٥٠ وصقلية من ١٠٦٠ و ١٠٩٠ م . وكانت أوروبا تستعد للحروب الصليبية ، وأرسلت حملاتها فى آخر القرن . وهكذا تتمزق الدولة الإسلامية وتقع فى يد الأتراك بما عرف عنهم من التخلف والعنصرية .

(١) سعيد عبد الفتاح عاشور : الجامعات الأوربية فى العصور الوسطى ، النهضة المصرية ، ١٩٥٩ ، ص ٢١٥ .

(٢) هونكه ، ص ٢٠٩ .

(٣) أبو الفتح رضوان ، ص ٢٢٥ .

ومن أهم الأسباب التي يجب أن نضيفها إلى هذا ، الاستبداد الفكري والجذب العقلي ، والتعصب الأعمى ، وما مثلها من ميكروبات بدأت في الظهور والانتشار لتعيب في جسم الثقافة الإسلامية فسادا وتخريبا . ومن هنا نجد أنه بعد أن كان المجتمع الإسلامي يشهد المعتزلة بمناقشاتهم العقلية الرائعة ، والعديد من العلماء في الطب والكيمياء والرياضيات والفلاسفة من أمثال الكندي والفارابي وابن سينا وابن رشد ، إذا به يشهد نوعا آخر من الناس ، يحرقون البخور للحكام الجدد الذين يقوم حكمهم على الاستبداد ، نوعا من الناس يبررون الضعف والتخاذل والجمود ، نوعا من الناس يزعمون أن الكلمة النهائية في العلم والبحث قد قيلت من قبل ، فلا ينبغي لأحد أن يجهد ذهنه ويعمل عقله في التفكير من جديد ، وما عليه إلا أن يقلب صفحات كتب من قبل ليجد فيها حلا لكل معضلة ، ورأيا صوابا في كل مشكلة مهما تباعدت الأزمان (١) .

وظهرت الدعوة إلى قفل باب الاجتهاد ، وكان التفكير الفلسفي بطبيعة الحال للعو الأول لهذا الفريق . وحتى تكتسب تلك الدعوة القداسة وقوة التأثير على الناس ، لبست لباس الدين مبرأ منها براءة الذنب من دم ابن يعقوب ، وصدر كثير من الكتب تهاجم الفلاسفة والمنطق بوجه خاص ككتاب (الرد على المنطقيين) للنويختي . وفي المغرب الإسلامي أمر المنصور بن أبي عامر - بعد موت الخليفة الحاكم سنة ٣٦٧ هـ بإحراق كتب المنطق . ومن أجل هذه الحملات التي عاناها المنطق ، أخفى الغزالي اسم المنطق من عناوين كتبه اتقاء لضيق أهل السنة والجماعة ، فجعل كتبه (معيار العلم) و (محك النظر) و (القسطاس) وإن كان قد برم به في (محك النظر) وحذر في المنقذ من التسرع في الوقوع في الكفر استنادا إلى زندقة أهل المنطق .

بل بلغت المعارضة أوجها بعد الغزالي ، وتجلي نفور المتأخرين من المترددين من الفلسفة والمنطق في فتوى ابن الصلاح المتوفى سنة ٦٤٣ هـ . وقد أفتى بتحريم الفلسفة والمنطق وفيها يقول ' وأما المنطق ، فهو مدخل الفلسفة ومدخل الشر شر ، وليس تعليمه وتعلمه مما أباحه الشرع ولا استباحه أحد من الصحابة والتابعين والأئمة المجتهدين والملف الصالحين .. ' . ونصح ابن خلدون كل من أشكل عليه الأمر وعرض له الارتباك في الفهم أن يتجنب قوانين المنطق (٢) ، وعلت أصوات أصحاب الفقه لتستبد بأمر التفكير وتندد

(١) سعيد إسماعيل علي : دراسات في التربية والفلسفة ، عالم الكتب ، ١٩٧٢ ، ص ٢٠٢ .

(٢) المرجع السابق ص ٢٠٣ .

بالاجتهادات العقلية وكان شعار السلفيين ' نفر من الكلام فى أى صورة تكون كما نفر من الأمد ' ، ويعبر عن شعور السلفيين نحو علم الكلام قول حانق ينسبونه إلى الشافعى هو ' حكمى على رجال الكلام أنه يجب أن يضربوا بالسياط والنعال وأن يطاف بهم مشهرين فى الجامع والقبائل ' .

وأكد ابن أبى أصيبعة ^(١) أن المنصور فى الأندلس (١١٨٤ - ١١٩٩) قد شدد فى أن لا يبقى أحد يشتغل بشيء من المنطق والفلسفة وأنه ' متى يوجد أحد ينظر فى هذا العلم أو وجد عنده شئ الكتب المصنفة فيه فإنه يلحقه ضرر عظيم ' .

وذكر المراكشى فى المعجب ^(٢) أن الفقهاء قرروا فى مجالس أمراء الموحدين تقبيح علم الكلام وكراهة السلف له وهجرهم من ظهر عليه شئ منه وإنه بدعة فى الدين وربما أدى أكثره إلى اختلال العقائد ، وكتبوا إلى البلاد بالتشديد فى نبذ الخوض فى شئ منه وتوعد من وجد عنده شئ من كتبه .

وكان اضمحلال شأن اللغة العربية من أخطر المصائب التى حلت بالتقافة الإسلامية العربية وأثره فى التربية والتعليم كان حاسما ، فالمعروف أن الفرس كانوا شركاء العرب فى دولة الخلافة ولكنهم ظلوا يرقبون فرصة يتخلصون فيها من حكم العرب السياسى ومن سلطانهم الثقافى فجاءت هذه الفرصة بعد سقوط الخلافة فتحللت بلاد الفرس تدريجيا من سلطان اللغة العربية واتحصر استعمالها فى الشئون الدينية وفى بعض المدارس وعند بعض العلماء ، وظل ذلك فى ازدياد حتى جاء زمن لم يبق فيه للعرب سلطان يذكر فى بلاد الفرس حتى فى مصر والشام والعراق غلبت أساليب الأعاجم فى الكتابة وبعض ركاكتهم فى التعبير والاصطلاح وهذا كله جعل اللغة وتعليمها أمرا صعبا وزاده صعوبة ما طرأ على المدارس والكتاتيب من انحطاط فى المستوى العلمى والإدارى على وجه الإجمال .

ويظهر هذا الانحطاط واضحا فى نوع العلم والعلماء لا فى عددهم أو عدد كتبهم أو عدد المدارس والمكاتب وتتوعها ، فالمدارس كانت كثيرة وعدد المدرسين والفقهاء والمؤدبين ومعلمى الكتاتيب غير قليل ، وإقبال عدد من الطلاب على التعلم والدرس واضح لكل مطلع على كتب العصر ، لكن لم يظهر من ذلك علماء كبار وباحثون مشهورين . والمدارس التى

(١) المرجع السابق .

(٢) لمرجع السابق .

وجدت لم تكن من درجة مدارس الجامعة السابقة والكتاتيب التي كانت مفتوحة لم تكن من درجة لائقة فمعظمها أقيم في بيوت خاصة أو في زاوية من زوايا المتصوفة أو في تكية من تكايا الدراويش كان يقضى الطالب فيها سنوات طويلة وهو يتعلم أصول العربية ومبادئ الدين ويخرج منها وقلما توصل إلى شئ صالح دائم من هذا أو ذاك .

ويمكن تفسير هذه الظاهرة وهي انحطاط مستوى المكاتب والمدارس مع كثرة عددها وعند معلمها وطلابها بأن الذين كانوا يقومون عليها هم السلاطين والأمراء من الأعاجم فكان تأسيس المدارس وحبس الأوقاف عليها أصبح سنة أو عادة عند هؤلاء يتقربون بذلك من العامة أو يحاولون إرضاء مشايخ الطرق وفقهاء المذاهب بتعيينهم في وظائف للتدريس أو الوعظ أو التعليم في المدارس والزوايا والكتاتيب ، فهؤلاء السلاطين والأمراء لم يعرفوا قيمة إنشاء المدارس مثل ما عرفها نظام الملك أو العزيز .

رابعا - عهد الاستعمار الثقافى والتربوى

الغزو الفكرى وآثاره :

كان للحروب الصليبية أثرها فى التمهيد لما شهده العالم الإسلامى من مظاهر غزو فكرى . وترجع الحروب الصليبية من بين ما ترجع إليه على ما بدأ على المجتمع الأوربى فى نهاية العصور الوسطى من انتعاش ، وقد اتصل هذا الانتعاش بعد ذلك وكان من بوارده ظهور بحر الشمال وسيطرة أوربا على البحر المتوسط واكتشاف طريق رأس الرجاء الصالح والأمريكيتين ثم ما عقب ذلك من نمو اقتصادى لا سابق له إذ كانت أوربا تتصل بأسواق الشرق الأقصى اتصالا مباشرا وتضع يدها على عالم ثان وتنتقل بالتالى من الإنتاج المحلى البسيط لأسواقها المحدودة إلى الإنتاج الضخم للعالم الجديد وشعوب آسيا وأفريقيا أيضا وتزاول ما يستتبعه هذا الإنتاج من اتجار ونقل ومن ثم كان ازدهار التجارة والصناعة فيها ازدهار مذهلا .

وكان المجتمع القائم على هذا النحو الاقتصادى يأخذ من ناحيته أثناء ذلك بأسباب الرقى الذى نشهده فى الغرب فقد اتسع نشاطه حتى أصبح يشمل الشرق الأقصى والعالم الجديد وآسيا الوسطى أى المناطق التى جعل أبناء أوربا ينزحون إليها معها ويتكثرون ويحيون حياة رخية جديدة . وتمايزت وظائفه فانفصلت الشؤون الدينية عن الشؤون الدنيوية وتنوع الاقتصاد وازدهر وقد لزم هذا النمو وتفاعل معه ما كان لابد حادث فى عالم الثقافة

والتربية من تحول عميق شامل فعادوا يدرسون آثار الماضى الإغريقى الرومانى وبينون من حيث انتهى أسلافهم ويتعمقون الحياة المادية بعد أن طال تعمقهم للحياة الأخرى ، وكان الاتجاه إلى العلوم الطبيعية والدراسات التطبيقية التى ثارت بالعالم من جديد باختراعات القرن التاسع عشر (١) .

وكان العالم العربى يعيش أثناء ذلك تحت وطأة الحكم العثمانى حياته الخاصة بعيدا عن التطورات التى أصابت الحياة الغربية ومقدراتها وقوانينها ولم يكن العثمانيون فى نهاية الأمر سوى موجة جديدة من هجرة أهل آسيا الوسطى إلى حوض البحر المتوسط يمتازون بما امتاز به من سبقهم إلى تلك الهجرة من أكراد ومغول وشراكسة من خشونة بدوية مقاتلة ومن ثم كانت غاراتهم المستمرة وضعف استيعابهم لدواعى الحياة المدنية وعدم اكترائهم أيضا للاكتشافات الجغرافية الجديدة على الإطلاق فهم لم يتصلوا بأمريكا ولم يحاولوا شيئا فى سبيل منافسة طريق الرجاء الصالح وقنعوا بما عرفوه وعرفته البلاد التى استولوا عليها من نظم اقتصادية أصابها ما أصابها من انتكاس فى ذلك الوقت بالذات .

وقد كان من شأن مضى الغرب فى الطريق الفسيح الجديد الذى رأينا بعد انقباضه فى العصور الوسطى وتعثر الشرق فى الطريق الذى كان أخذ به منذ الفتوح العربية بعد الإمعان فى الاتساع وعدم تعرضه لعوامل فعّاله كالعوامل الخارقة التى طرأت على حياة الغرب من اكتشافات جغرافية إلى اختراعات علمية إلى ظهور طبقات جديدة على حياته ، كان من شأن ذلك أنه ما إن انكسرت الغارات العثمانية فى القرن السابع عشر والتقى العالمان فى بداية الحياة المدنية حتى طغى الغرب على الشرق وغمره غمرا كما يحدث حين يلتقى مسائل فى مستوى عال بمائل فى مستوى أقل منه ارتفاعا ما يطغى عليه ويغمره .

أساليب الغزو الفكرى :

وسلكت الثقافة الغربية عدة مسالك فى غزوها للعالم العربى لكننا الآن ننبه بادى ذى بدء إلى أن هذا الغزو كانت تحكمه قواعد خاصة وتوجهه سياسية معينة ولم يكن مطلقا كما قد يوحى كلامنا وإلا فإن لنا أن نحمد الله على أن الثقافة الغربية قد غزت الثقافة العربية ذلك أن هذه الثقافة الحديثة لا يمكن أن ننكر عليها قوتها وحيويتها وعظمتها ، ولكن لكل حضارة سلبياتها فى مقابل إنجازاتها الإيجابية . والقواعد الخاصة والسياسية المعينة التى روعيت فى

(١) المرجع السابق ، ص ١٦٢ .

تسرب الثقافة إلى العرب تتلخص فى السماح بأكبر قدر مستطاع فى تهريب هذه المليات والعمل بكل جهد ممكن على حجب الإيجابيات ، فإذا لم يكن مفر من معرفتها فعلى الأهل لابد من تحطيم القاعدة الاقتصادية وتسميم المناخ السياسى وخلخلة البناء الاجتماعى وهى الأبعاد الأساسية التى لابد منها لقيام ثقافة حديثة ونموها وتطورها .

ويمكن الإشارة إلى مسالك الثقافة الأوربية الحديثة إلى العرب فيما يلى :

فهنالك عدد لا يستهان به من العرب وخاصة من مصر والشام أتاحت لهم فرصة طلب العلم فى مختلف المدارس والمعاهد والجامعات الغربية استمروا عدة سنوات عاشروا فيها الغربيين وخبروا عاداتهم ومناهج تفكيرهم فتأثروا بها بطبيعة الحال كما قرعوا العديد من الكتب والمراجع والصحف التى تلخص أهم ما فى الحضارة الغربية من أفكار وفلسفات ونظريات وتعلموا على أيدى عدد من الأساتذة فى مختلف فروع المعرفة كان بعضهم إماما فى فنه ، وعندما عاد هؤلاء إلى بلادهم كان طبيعيا أن يحملوا معهم كثيرا مما قرعوه وخبروه وسمعوه ، وهكذا رأينا أفكار الفلسفة الوجودية والوضعية المنطقية والماركسية وغيرها تتسرب إلى ثقافتنا ، وهكذا رأينا كيف استطاعت فلسفة التربية البراجماتية أن تتغلغل فى نظمنا ومناهجنا وسياستنا التعليمية ، ونفس الشيء يمكن قوله فى قطاعات أخرى عديدة (١) .

قام بعض المثقفين العرب بترجمة عدد كبير من المؤلفات العلمية الغربية لعبت دورا كبيرا فى تشكيل ثقافتنا منذ تم اللقاء الأول بين الثقافتين فى أواخر الثامن عشر ، وفى مصر فى عهد محمد على ترجمت عشرات الكتب الخاصة فى مجالات العلوم العسكرية والطبيعية والرياضية ومنذ عهد إسماعيل نشطت حركة الترجمة فترجم أحمد فتحى زغلول عددا من الكتب السياسية والاجتماعية والتاريخية مثل العقد الاجتماعى لروسو ومبادئ التشريع لبنتام وسر تقدم الإنكليز فى بلادهم ، وسر تطور الامم لجوستاف لوبون ، وترجم محمد السباعى ' التربية ' لسبنسر ، ونقل محمد عثمان جلال وغيره عددا من المسرحيات الأوربية إلى العربية وترجمت معظم كتب جون ديوى إلى اللغة العربية مثل (الديمقراطية والتربية) و(البحث عن اليقين) و (المنطق نظرية البحث) إلى غير ذلك من مترجمات احتل فيها الأدب المركز الأول .

(١) محمد الهادى عفيفى وآخرون : التربية ومثكلات المجتمع ، الاتجلو المصرية ، ١٩٧٣ ، ص ١٧٠ .

- عندما تعرضت الشام لحملة من الاضطهاد فى أوائل النصف الثانى من القرن التاسع عشر هرب عدد من المفكرين إلى مصر حيث وجدوا مناخا أتاح لهم الفرصة فى العمل الثقافى والتربوى فأسسوا كثيرا من المدارس والصحف والمجلات التى دأب معظمها على الترويج للثقافة الغربية ، وكانوا موزعين بين النفوذ الفرنسى والنفوذ الإنجليزى . وكانت صحيفة الأهرام تمثل الاتجاه الأول بينما كانت (المقطم) و (المقطف) يمثلان الاتجاه الثانى ، وكانت هذه الصحف ، والصحيفة الأخيرة بنوع خاص ، دائبة على التعريف بالمذاهب الغربية فى الفلسفة والآداب وسائر ضروب الثقافة لا تكاد تشير إلى شئ من قديم العرب وتراثهم الفكرى . وكانت تترجم لعظماء الرجال من الغربيين ولا تكاد تجد فيها ترجمة لرجل من أبطال العرب والإسلام أو مصر فى تاريخها الحافل الطويل ، كما كانت تعمل من طريق خفى على إضعاف النعرة الدينية والوطنية بما تنتشر من آراء تشكك فى العقيدة وبما تذهب إليه من نزعات عالمية (١) .

- عدد كبير من أصحاب الإرساليات الدينية جاؤوا إلى العالم العربى مستترين وراء الدين مخفين وجهها استعماريا بغیضا وقلبا ينبض بروح الحقد والكراهية فأخذوا ينشرون المدارس الأجنبية فى طول البلاد وعرضها ، بل كانوا حريصين على التغلغل فى الأقاليم والريف العربى ، متقربين إلى قلوب الناس ببعض المساعدات الطبية والغذائية والدعوات الدينية . ومن المفارقات المضحكة ، أن هذه الأساليب كانت تبذل جهودا مضنية لا فى اكتساب أتباع جدد للديانة المسيحية ، وإنما فى تحويل أبناء العرب المسيحيين من مذهب إلى مذهب مثلما فعلوا فى تحويل عدد من أبناء القبط فى مصر من المذهب الأرثوذكسى إلى غيره . وكذلك كانت مدارسها لا تسير إلا وفقا للمناهج والنظم التعليمية القائمة فى بلادها الأصلية حتى أصبح معظم خريجي هذه المدارس يتقنون لغة أجنبية ولا يعرفون من لغتهم العربية إلا الثنى القليل ، ويطلعون على جغرافية فرنسا أو إنجلترا أو أمريكا ، ولا يعلمون شيئا عن تاريخ مصر والعراق وليبيا والجزائر وجغرافيتها - فهى إذا كانت قد ساعدت على نشر الثقافة الغربية لم يكن بهدف (التلقيح الثقافى) وتطوير القديم وتجديده ، وإنما كان بهدف (التدمير والأضعاف) .

(١) محمد محمد حسين : الاتجاهات الوطنية فى الأدب المعاصر ، مكتبة الآداب ، القاهرة ، ١٩٥٦ ، ص ٢٤٣ .

آثار الغزو الفكرى على التطيم العربى :

وكانت القوى الاستعمارية من الذكاء بحيث أدركت أنها إذا كانت قد تمكنت ن العالم العربى بامتصاص ثرواته الطبيعية وبتأقال خزائنه الحكومية بالديون وبوضع حكلم على مقلاید الأمور يكونون مجرد (دمی) سهلة التحرك فيما يراد لها ، وإذا كان قد تمكن أيضا من هذه المنطقة عن طريق التواجد العسكري ، إلا أن ذلك كله بمثابة من بنى صرحا ضخما على الرمال .. فلا بد من حفر ولا بد من إرساء القواعد والأسس ، ولن يكون ذلك إلا بغزو العقل العربى وإلا بالتمكن من التربية والتعليم وتوجيهها وفقا لما يخدم المخططات الاستعمارية . وتجلى ذلك فى عدد من المظاهر والأساليب يمكن إیراز أهمها فيما یلى :

- دأب الاستعمار فى كل ركن من أركان الوطن العربى على أن يوجه للنظم التعليمية بصورة صريحة أحيانا وبصورة ضمنية أخرى . أما الصورة الصريحة ، فتتجلى فى تعيين مفتشين أجانب فى القيادات التعليمية وفى أجهزة السلطة التربوية لتشرف على كل صغيرة وكبيرة حتى لا یفلت شئ فى مسیر فى اتجاه غير مرغوب فيه ، أما الصورة للضمنية ، فتتجلى فى تلك الأعمال التى قام بها عدد كبير من العلماء العرب الذين استطاع الاستعمار أن یلمس ما فى شخصياتهم من ضعف قومى ووهن دينى فكانوا أدواته فى تحقيق أهدافه .

وقد ركزت السياسة الاستعمارية بطبيعة الحال على مناهج الدراسة باعتبارها المقوم الأساسى للعملية التعليمية فعملت على أن تنحو بها نحواً نظرياً بحثاً بحيث تعود المواطنين العرب على الاشتغال بالكلام والاهتمام بالثقافة اللفظية والوسائل الكلامية البحتة لا خطر منها على الاستعمار ، ولا يمكن الركون عليها وحدها فى تغيير المجتمع .

ولم يقتصر الأمر على اللفظية ، وإنما امتد ليشمل كذلك تكبيل المناهج بالقيود بحيث تميل إلى الجمود والتخلص وعدم مسايرة اتجاهات العصر وبذلك تسهم فى تعميق للتواجد الاستعمارى والتخلف الوطنى .

- ولما كانت الحياة بطبيعتها متكاملة ، فإن السياسة التى تمسیر وهى تعانى من (انفلاقات) تعوق أكثر ما تعين وتهدم أكثر مما تبني ، ومن هنا كان الحرص على بذر بذور الثنائيات الثقافية والتعليمية ، فهناك التعليم الفنى ، والتعليم العام ، وهناك الثقافة للشرقية التقليدية ، والثقافة الغربية الحديثة ، وهناك المدارس الأجنبية والمدارس الوطنية وهناك التعليم الابتدائى والتعليم الأولى .. الخ .

- كذلك فقد بذلت جهود ضخمة فى إقامة نظامين للتعليم فى البلاد العربية أحدهما دينى والآخر مدنى وكان من أثر ذلك أن انقسم المثقفون إلى فريقين فريق سلفى ، وفريق حديث ، وأدى هذا إلى حجب التعليم الدينى عن إمكانيات التطوير والتجديد وإيهام الناس بأن ذلك إنما هو كفر وضلال ، هذا بالنسبة للمتدينين أما بالنسبة لغيرهم ، فقد وقر فى ذهنهم أن الدين عدو التقدم وعائق للتطور . وفى نفس الوقت حرموا اتجاهات التطوير والتحديث من أن ترتبط بالقيم الثقافية العربية الأساسية خوفا من تهمة التخلف والجمود ومن هذا وذلك عانت الشخصية العربية من التمزق وتبديد الجهود وإفراغ الطاقات فيما لا طائل من ورائه .

- وإذا كان الاقتباس مطلوباً ، والتغذى على الثقافات المتقدمة مرغوباً ، إلا أن لذلك قواعد وأصول لابد أن تراعى وإلا كان الضرر أكثر من النفع من عملية الاقتباس ، ومع الأسف الشديد ، فعندما بهر العرب بإنجازات الثقافة الغربية الحديثة أيقنوا أن وراء هذه الاتجاهات نظاماً تعليمية رائعة كانت مصانع حقيقية تخرج المواطنين القادرين على صنع هذه الحضارة ، أسرعوا باقتباس هذه النظم دون أن يدركوا ، أن النظام التعليمى ، إنما هو جزء من النظام الاجتماعى وأنه إذا كان وليد النظريات العلمية والمقومات المادية ، إلا أنه مرتبط كذلك بالخبرات التاريخية والمشاعر القومية والسمات الشخصية مما قد يجعل نظاماً يصلح فى مجتمع ، حتى إذا عزل ونقل بحذافيره إلى مجتمع آخر أصابه الفشل والاضطراب .

- والعالم العربى لاتساع رقعته الجغرافية ، ملئ باللغات المحلية ، ولو لم تكن هناك هذه اللغة القومية العربية لا نفرط عقد عدد من أجزاء هذا الوطن . ومن هنا فقد حرص الاستعمار على تشجيع اللهجات المحلية ، وآية ذلك ما حدث فى مصر بعد مجيء الاستعمار البريطانى ، فقد شاعت دعوة إلى ترك العربية الفصحى إدعاء أنها صعبة ومعيقة للتعليم وضرورة الارتكان إلى اللهجة المصرية العامية ، ووقع بعض المثقفين المصريين مع الأسف فى هذه المصيدة فشايعوها وأيدوها ، بل وطبقوها بالفعل فى إنتاجهم الفكرى . وحدث هذا أيضاً فى المناطق الكردية فى شمال العراق وسوريا ، وفى جنوب السودان وفى المغرب العربى . ولكن قوة الثقافة العربية استطاعت أن تقهر هذه الدعوات الخبيثة لتظل اللغة العربية الرابطة الأساسية بين شعوب المنطقة .

- ولم يقتصر الأمر على تشجيع اللهجات المحلية ، بل تعداه إلى فرض التعليم بلغة أجنبية ، فصار التعليم بلغة أجنبية ، فأصبح فى الجزائر وتونس والمغرب بالفرنسية وكذلك فى سوريا ولبنان ، أما فى العراق ومصر وفلسطين والسودان فقد أصبح بالإنجليزية . وإذا كان هذا الاتجاه قد سهل التغلب عليه ، كما حدث فى مصر إلا أنه قد رسخ فى بعض المناطق

الأخرى كما نرى فى الجزائر مثلا ، مما ألقى على عاتق الحكومة الجزائرية بعد الاستقلال عبئا ضخما فى سبيل التعريب .

- كذلك مر بنا أن الإرساليات الدينية أقامت عدد ضخما من المدارس فى المنطقة العربية جذبت إليها الآلاف من أبناء العرب بحكم الأساليب المتعددة التى اتبعت لجذبهم سواء بالإمكانات الضخمة والمساعدات الطبية وغيرها ورسخت هذه الإرساليات الكثير من المشكلات التربوية والثقافية التعليمية ، كما أسهمت فى إضعاف التماسك الاجتماعى داخل البلد الواحد .

- ومن أهم ما يمكن الإثارة إليه ، ذلك التباين الذى فرضه الاستعمار فى أنظمة التعليم فى الوطن العربى ، ففى بعض المناطق نجد تعليما للبنات وفى البعض الآخر لا نجد ، وهناك بلاد تعرف معاهد التعليم الفنى ، ثم نجد بلادا أخرى لا تعرف هذا النوع من المعاهد ، وهناك المناطق الريفية المحرومة من الخدمات التعليمية ، وهناك المناطق الحضرية التى تتمتع ببعضها .

وعلى الرغم من أن المنطقة العربية قد عانت من ويلات الاستعمار فى وقت واحد ، إلا أن التطور الذى حدث للنظم التعليمية لم يسر بسرعة واحدة مما كان أثره فى بنور الاختلاف والتباين بين هذه الأنظمة الآن ، وهذه بدوره شكل عائقا ضخما أمام الجهود المبذولة فى سبيل الوحدة العربية .

- ولما كان لكل فعل رد فعل مساو له فى القوة ومضاد فى الاتجاه ، كان من الطبيعى أن تستتفر هذه الآثار جهود الحركات الوطنية العربية لتلعب دورها لا على المسرح السياسى فقط ، وإنما على المسرح التربوى كذلك ، فرأينا جهودا فعلية لإقامة المدارس فريدا أو عن طريق جمعيات وهيئات حتى توفر لأبناء الوطن العربى الفرص التعليمية التى حجبتها عنه الاستعمار من ذلك مثلا - فى مصر - الجمعية الخيرية الإسلامية ، وجمعية التعليم المصرية وغيرها . كذلك أسهمت بعض الأحزاب السياسىة فى ذلك كما فعل الحزب الوطنى . وعلى المستوى الفكرى نهض الكثيرون يفضحون أساليب الاستعمار وينبهون المواطنين لخطرها ويصرونهم بالأساليب التى يجب أن يلجئوا إليها للقضاء على هذه الجهود الاستعمارية ، وينقلون إلى الجماهير ثمرات الفكر التربوى الحديث ليعينهم فى أعمالهم ، نذكر من هؤلاء ساطع الحصرى وطه حسين وإسماعيل القبانى والشيخ محمد عبده ومصطفى كامل وعبد الله النديم وعبد الحميد بن باديس وغيرهم كثيرون .